

بسم الله الرحمن الرحيم

النظم الاجتماعية الكلية في رؤية القرآن للعالم: نحو برنامج للبحث العلمي

محمد الحسن بريمة إبراهيم (2020م)

﴿وَأَن آحُكُم بِبَيِّنُهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَآحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ٩٤﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ (المائدة).

1- مقدمة

هذه الورقة سبقتها ورقتان من تأليف هذا الباحث، وتبني على النتائج التي تم التوصل إليها فيها. الورقة الأولى كانت بعنوان "رؤية القرآن للعالم ودلالاتها على النظم الاجتماعية"، وكان جوهرها هو التأسيس المنهجي لرؤية القرآن للعالم (خطة الخلق العامة)، واستنباط النظم الاجتماعية الإنسانية الكلية الدالة عليها. الورقة الثانية جاءت بعنوان "الطريقة النظامية في دراسة النظم الاجتماعية"، وتم فيها تقديم المنهج النظمي السائد في العلوم الطبيعية والاجتماعية الغربية، والاقتراح بأن يكون هو الأساس لدراسة النظم الاجتماعية المستخلصة من رؤية القرآن للعالم بعد التصديق عليه بالدلالات الوجودية والمعرفية والمنهجية لتلك الرؤية. لذلك لابد لكل من يريد الاطلاع على هذا البحث بغرض فهمه من أجل نقده، أو الاستفادة منه، أن يستوعب ما جاء في ورقة المنهج المذكورة أعلاه، وهي منشورة في مجلة "تفكر"، ومرفوعة في موقع (biraima.net).

إذن، في إطار السياق أعلاه، يمثل محتوى هذه الورقة الخطوة الأخيرة في وضع الأسس العلمية لبرنامج بحث علمي يستند إلى مرجعية الوحي الكريم في مجال النظم الاجتماعية، حيث تتم محاولة توظيف المنهج النظمي، الذي تم وصفه في الورقة الثانية، في الدراسة الأولية للنظم الاجتماعية الكلية المستخلصة من رؤية القرآن للعالم في الورقة الأولى. وهي دراسة أولية استكشافية تطمح إلى أن تضع البحث العلمي الاجتماعي الإسلامي على قدم المساواة مع نظيره العالمي من حيث قضايا البحث العلمي المطروحة، ومناهج بحثها، وتتقدم عليها من حيث مرجعيتها الوجودية والمعرفية المرتكزة على الوحي الكريم، المعادل الموضوعي للوجود الذي هو موضوع البحث العلمي، الطبيعي والاجتماعي.

2- الرؤية الوجودية لعالم الاجتماع الإنساني في القرآن الكريم

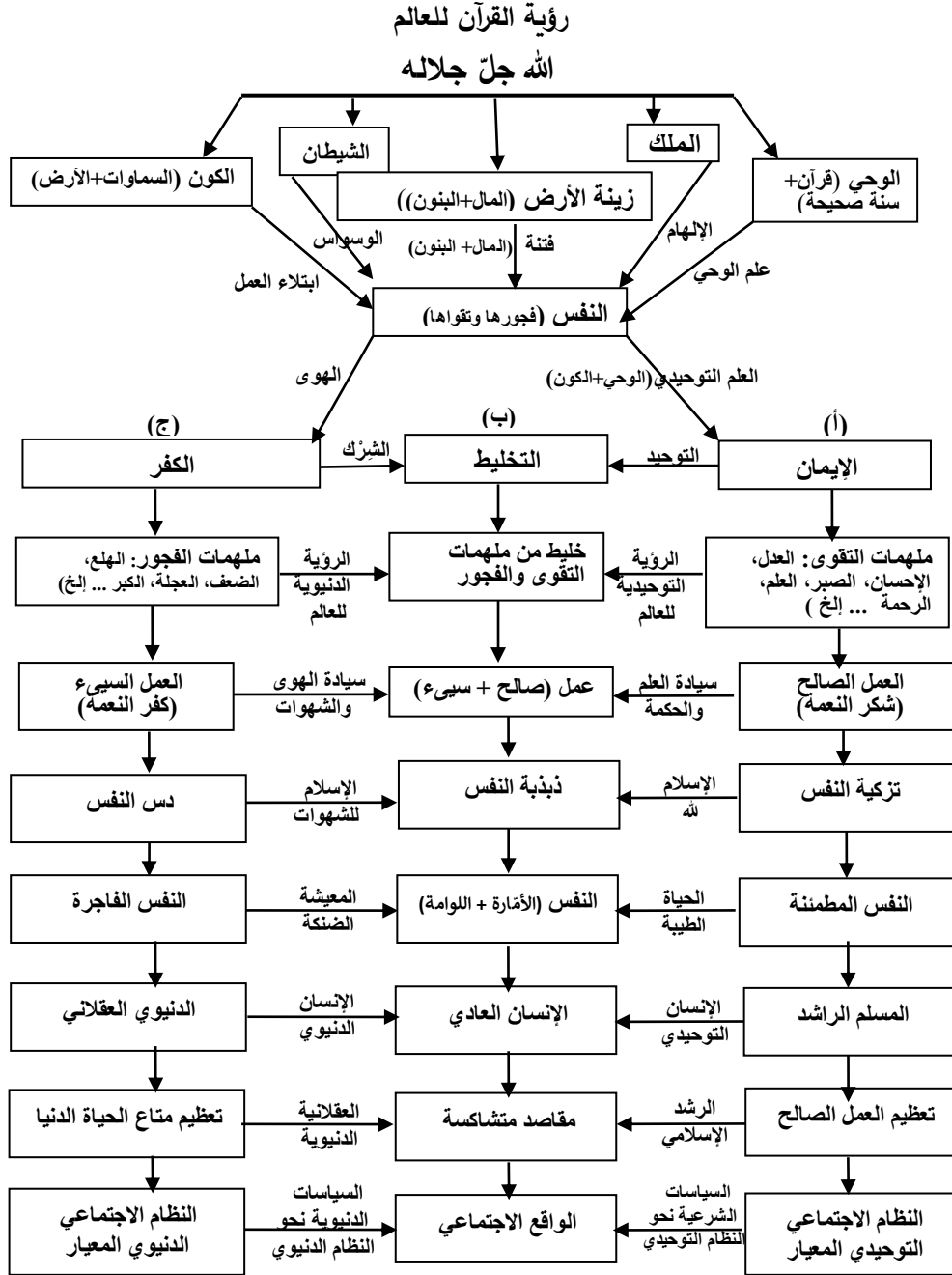
الشكل رقم (1) أدناه يلخص رؤية القرآن الوجودية للعالم (خطة الخلق العامة) التي يسر الله تعالى الباحث للتوصل إليها من خلال النظر المنهجي في القرآن الكريم، وتم بسطها في الورقة الأولى المشار إليها في مشروع البحث أعلاه، وفي بحوث كثيرة سابقة ومنشورة لذات الباحث.

لقد اعتمد هذا المشروع البحثي العلمي منهج عالم فلسفة العلوم "ماريو بنج" لتحليل النظم كأساس تحليلي للنظم الاجتماعية المستنبطة من رؤية القرآن للعالم. يتأسس المنهج النظمي لبنج على رؤية وجودية مادية للعالم قمنا بتلخيصها في الورقة الثانية التي أشرنا إليها، وهي بعنوان "الطريقة النظامية في دراسة النظم الاجتماعية"، وقد آن لنا أن نعيد إنتاج الدلالة الوجودية للرؤية القرآنية للعالم، التي يجسدها الشكل (1)، على النظم الاجتماعية بلسان عربي يسمح بالمقارنة بينها وبين الرؤية الوجودية المادية لماريو بنج. وهذه الرؤية الوجودية القرآنية لعالم الاجتماع الإنساني مبسطة في بحثنا المنشور بمجلة تفكر¹ مما يسمح لنا أن نقتبس منه في هذا المقام تلك الأبعاد التي تفي بغرضنا الراهن. هذه الرؤية الوجودية القرآنية تستوعب

¹ - "مفهوم إقامة الدين في القرآن الكريم: أبعاده الوجودية، والمعرفية، والمنهجية"؛ محمد الحسن بريمة. مجلة تفكر، م 17، ع 1، 2017م؛ إمام، جامعة الجزيرة، السودان.

وتتجاوز الرؤية الوجودية المادية لما ريو بنج، وللمدرسة الوجودية النقدية التي ينتمي إليها، المحدودة بعالم الشهادة، المحجوبة بظاهر من الحياة الدنيا، لأن الرؤية القرآنية مؤسسة على الأبعاد الوجودية لعالمي الغيب والشهادة، ومن ثم تتيح ثراءً كبيراً في معطيات التحليل للنظم الاجتماعية، وتنوعاً وعمقاً غير محدود في تفسير مظاهر الوجود الإنساني المتجذر في عالمي الغيب والشهادة.

شكل رقم (1)



إذا نظرنا إلى الشكل (1) أعلاه الذي يلخص رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني فسوف نتبين القوى الفاعلة الآتية في فضاء الوجود الاجتماعي:

أولاً؛ الله المتعالي، المصدق، والمهيمن على جملة الفضاء الاجتماعي، إحاطة مباشرة، ومن خلال السنن الاجتماعية المذكورة في القرآن الكريم، ومن خلال غيرها مما اختص الله تعالى بعلمه، وأشار إليه في كتابه المنزل، فلا شيء يحدث في هذا الفضاء إلا بعلمه وبإذنه، أو بأمره وفعله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦١﴾ (يونس)،

ثانياً؛ الوحي الإلهي المنزل على فضاء الوجود الاجتماعي في كتاب بلسان عربي مبين، وهو يحوي المثال الديني المطلوب إقامته في الواقع الاجتماعي الظرفي، وهو كلام الله وعلمه، وهو محفوظ من التحريف بحفظ الله له إلى قيام الساعة. وهو كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت، وإن كانت آياته متناهية العدد إلا أن العلم الذي فيه يسع الاجتماع الإنساني، وتفاعلاته الكونية إلى قيام الساعة،

ثالثاً؛ الوجود الاجتماعي وقاعدته الكونية (النفوس، المال، البنون) المحددان بالزمان والمكان، باعتباره الواقع الاجتماعي الظرفي الذي سوف يُشاد فيه بنیان الدين، ومن ثم الاتجاه بالواقع الاجتماعي الظرفي (الدين المقام) نحو التوحد مع مثاله الديني الثاوي في الوحي الإلهي. فالنفوس، أي الإنسان في كليته المادية والمعنوية، أهم ما تبرزه فيها رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني، فيما يتعلق بإقامة الدين (مجتمع التوحيد)، هو "القلب" بمعناه القرآني، لأنه الموضع الذي يُصب فيه ساس الدين (الإيمان). والاهتمام بأمر القلب أمر بالغ الأهمية لأي رؤية اجتماعية يراد لها أن تقام في الواقع. هناك أيضاً "النفوس" بفجورها وتقواها، وهواها من حيث تعلقها بشهوات المتاع الدنيوي، وأثر ذلك على "القلب".

"المال" و"البنون" بشهواتهما هما زينة الحياة الدنيا حيث الابتلاء والامتحان الذي قامت عليه "خطة الخلق العامة"، وفضاؤهما هو مضمار السباق، والتنافس لمن أراد الدنيا، ولمن أراد الآخرة، ولمن أرادهما معاً. فالذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها إنما يتنافسون على تعظيم حظوظهم من متاعها، والذين يريدون الدار الآخرة يتنافسون على تعظيم صالحات الأعمال في فضائها. إذن فضاء زينة الحياة الدنيا، حيث تتفاعل "النفوس" (بفجورها وتقواها) مع "المال" و"البنين"، هو المجال الحقيقي لفهم ظاهرة الاجتماع الإنساني. لذلك يعتبر العلم الدقيق بمكونات هذا الفضاء، وتفاعلاته، بشروط الزمان والمكان، في مجال "المال" حيث يُزِن للناس حب الشهوات من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيال المسومة، والأنعام، والحرث، وفي مجال "البنين" حيث علاقة الفتنة الجنسية بين النساء والرجال، وما يترتب عليها من فتنة الذرية، والعلم بالميزان الإلهي الذي ينبغي أن يحكم التفاعل الدائم في هذا الفضاء، هو أساس علم النظم الاجتماعية من منظور رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني.

من سمات الاجتماع الإنساني الجوهرية أن الناس لها مقاصد حياتية، تتجه غالباً، إن لم يكن الدين مقاماً، نحو تعظيم المتاع الدنيوي، وهذا أساس الصراعات والاضطرابات الاجتماعية عبر التاريخ البشري، لأن المتاع الدنيوي المحدود في الزمان والمكان لا يسع جميع أطماع النفوس البشرية اللامحدودة. لكن عندما تتأسس المقاصد الاجتماعية على تعظيم الإيمان بالله تعالى من خلال تعظيم العمل الصالح في فضاء الاجتماع الإنساني فإنه يسع جميع أنواع التنافس الاجتماعي في عمل الصالحات، ترقياً نحو الكمالات الإلهية، لأنه في حقيقته تعاون على البر والتقوى، وليس تعاوناً على الإثم والعدوان الذي يحتمه خيار الحياة الدنيا. والدرس المستفاد هنا، فيما يتعلق بإقامة الدين، هو أن تكون مقاصد الدين هي الأساس لمقاصد المجتمع وأفراده، وهي من السعة بحيث تستوعب جميع تطلعات الإنسان المحققة للحياة الطيبة في العاجل، ولحسن المآب في الآجل. ولكي تكون هذه المقاصد الدينية هي أساس الدين المقام، وحفظها على الدوام هو الضامن لحفظ نظام الاجتماع التوحيدي، لا بد أن تكون هي أيضاً المحدد للفعل والتفاعل الاجتماعي وأحكامه، وللنظام الاجتماعي الذي يثمره هذا التفاعل، بما يحقق تلك المقاصد، بشروط الزمان والمكان، فالمنطق الثاوي في الفطرة البشرية يقتضي أن تكون المقاصد هي المحدد لوسائل تحقيقها.

أيضا من السمات البارزة للاجتماع الإنساني الفعل الاجتماعي من منطلقات الفجور في النفس كوسيلة لتحقيق المقاصد الدنيوية المحضة، أو من منطلقات التقوى كوسيلة لتحقيق المقاصد الدينية، باعتبار الدنيا مزرعة الآخرة. ويترتب على الفعل الاجتماعي سمة بارزة أخرى هي التفاعل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ويتم ذلك في إطار نسيج، أو بنية اجتماعية جوهرية هي مجموع العلاقات التي تربط مكونات النظام الاجتماعي. والبنية الاجتماعية التي تعيننا هنا عبارة عن فعالية علاقاتية (relational) تعتمد في وجودها على الفعل والتفاعل الاجتماعي، وإن كانت تتميز عنهما بنوع من الاستقلال، وتؤثر فيهما بدورها.

تبرز رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني أن من أهم خواص الإنسان قدرته على كسب العلم، من خلال وسائل الإدراك لديه (السمع، البصر، الفؤاد)، وهي الخاصية التي تسمح له بعمران الأرض، وباستيعاب رسالة الوحي من السماء، والوفاء بحق التكليف الاستخلافي. والدرس المستفاد، فيما يتعلق بإقامة الدين، هو أن المثال الديني الثاوي في الوحي الإلهي يعتمد كلياً في إقامته في الواقع الاجتماعي، واستدامته، على خاصية كسب العلم عند الإنسان، علم بالوحي، وعلم بالواقع الاجتماعي والطبيعي في الزمان والمكان الذي سوف يقام فيه الدين. ولذلك أمر الله تعالى الإنسان ألا يقف ما ليس له به علم، وأن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً.

لعل الخاصية الأبرز عند الإنسان بما أكدت عليه رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني هي "الحرية": ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف)؛ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَمَنَ مِن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس)؛ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيِّرٍ ۚ﴾ (الغاشية)؛ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنَّا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى)؛ ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ﴾ (فصلت)؛ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن تُظَلَّةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۚ﴾ (النحل)؛ ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ ۚ﴾ (عبس)... إلخ، ووعي الإنسان العميق بهذه الحرية، وما تلقى عليه من تبعات تترتب على حق الامتياز بها.

خاصية بارزة من خصائص الاجتماع الإنساني قدرة النفس على التغيير والتطوير، سواء في ذاتها، أو في بنية الاجتماع الإنساني، أو في القاعدة المادية التي تدعم الوجود الإنساني بما تعمله يد الإنسان فيها. وهذا يعني أن التغيير هو من طبيعة المجتمع الإنساني، وما لم يتم استيعاب هذه الخاصية فقد تجمد القوالب البنيوية للمجتمع، بينما محتواها من الفعل والتفاعل الاجتماعي في حالة مد يفيض عنها، وتضيق به، وهذا مصدر للتوترات الاجتماعية. والدرس المستفاد هنا، بالنسبة لإقامة الدين، هو أن الاجتهاد المعرفي الدائم في المثال الديني الثاوي في نصوص الوحي، الثابتة نصاً، اللامتناهية معني، أمر حتمي لاستنباط صورته التي تناسب وتستوعب حركة التغيير الاجتماعي الظرفي، وإلا فإن الواقع الاجتماعي سوف يتجاوز القلب الديني الذي كان يستوعبه من قبل، وسوف تسيل أوديته بقدريها في كل اتجاه، وتصبح حركة المجتمع، كثور في مستودعٍ للخراف، تُخرَّب الكثير قبل أن يقر لها قرار. وعندما تجتمع خواص "الحرية"، و"العلمية"، و"التغيير" مع "الإيمان" فإن الإنسان يصير، في المجتمع المقام فيه الدين، طاقة خيرة هائلة، يأتي من الأعمال العظيمة ما يكفي عظمة الخلق الكوني الذي جعل مجالاً لحركته، والذي هو لا محالة بالغه، سواء بحوافز دينية، أو دنيوية. والعكس صحيح عندما تجتمع خواص "الحرية"، و"العلمية"، و"التغيير" مع "إن هي إلا حياتنا الدنيا" فإن الإنسان يصير، في المجتمع الدنيوي، طاقة إفساد في الأرض هائلة.

رابعاً؛ الشيطان، عدو الإنسان، الساعي لمنع إقامة بنيان الدين من قبل الإنسان، أو لتقويضه بعد بنائه، ذو المهارات الفائقة، والجيل الناجعة في التأثير على خيارات الإنسان، وأفعاله. الشيطان، بحكم تسليطه على الإنسان، له طرق كثيرة نافذة في التأثير على خيارات الإنسان، فهو أحياناً يأمر، وهو يوسوس، وهو يُزيّن، وهو يَعِد، وهو يَسْتَفْزِز بصوته، ويجلب بخيله ورجله، وهو يشارك في الأموال والأولاد... إلخ، كما بين ذلك القرآن الكريم.

خامساً؛ الملائكة، رسل الله تعالى، لا تفعل حتى تُؤمر، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. لذلك نستنتج أن الملائكة، رغم وجودها في فضاء الاجتماع الإنساني، إلا إنها لا تملك قوة تأثير سببية ذاتية كما هو الحال مع الشيطان.

سادساً، أخيراً هناك البعد الكوني لفضاء الاجتماع الإنساني، وفي بحث لنا بعنوان "الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم"² توصلنا إلى فرضيتين أساسيتين يفي ذكرهما بالغرض في هذا المقام. جاء في الفرضية الأولى أن: "الأرض، بقمرها وشمسها، لها ما يماثلها في كل سماء من السماوات السبع، وجميعها مستخلف فيها الإنسان". وجاء في الفرضية الثانية الآتي: "سوف يبلغ الإنسان بعلمه وعمله جميع المتماثلات من الأرض في السماوات السبع ليحقق مغزى الاستخلاف العمراني عليها قبل قيام الساعة".

3- النظم الاجتماعية في رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني

جاء في ورقة "الطريقة النظامية..." التي مضى ذكرها التعريف الآتي للنظام الاجتماعي الإنساني: "النظام الاجتماعي الإنساني هو نظام اجتماعي يتشكل من الناس، ومما عملته أيديهم من أشياء، ويمسكه روابط من الأحاسيس، المعتقدات، المعايير الأخلاقية والقانونية، وأفعال اجتماعية مشتركة". النظم الاجتماعية الكلية، التأسيسية التي تم استخلاصها من رؤية القرآن للعالم هي أربعة، ويمكن الرجوع إلى منهج استخلاصها كما هو موضح في الورقة الأولى وعنوانها: "رؤية القرآن للعالم ودلالاتها على النظم الاجتماعية". وتلك النظم هي: النظام الاجتماعي العام، ويمثله الشكل رقم (2) أدناه، نظام الاجتماع الديني (شكل رقم 3)، نظام الاجتماع التوحيدي (شكل رقم 4)، نظام الواقع الاجتماعي (شكل رقم 5)، و(شكل رقم 7). نستخدم مصطلح "نموذج" لأن النموذج يشبه الصورة المقطعية، أو اللقطة الفوتوغرافية للنظام في لحظة زمنية محددة، بينما النظام ذاته هو كائن في حالة مد وجزر بلا انقطاع، أي إنه في حال من التغير الدائم.

الشكل رقم (2) أدناه يمثل نموذج النظام الاجتماعي العام المستخلص من "خطة الخلق العامة" التي يلخصها النموذج في الشكل رقم (1) أعلاه، المستخلصة بدورها منهجياً من القرآن الكريم. النموذج في الشكل رقم (2) هو نموذج لنظام اجتماعي مثالي (Ideal Type) تأسيساً على تعريف (ماكس فيبر)، يعبر عن النظام الاجتماعي الفطري العام الذي نفترض أنه يبدأ في العمل من اللحظة صفر، وهي اللحظة التي تكون فيها جميع المكونات الوجودية لخطة الخلق العامة قد اكتملت كما كانت في العلم الإلهي، وأذن الله تعالى للخطة أن تبدأ في العمل بمقتضى ذلك العلم، رغم أن ذلك قد تم في الواقع الزماني والمكاني على التراخي الذي امتد، وما زال يمتد زماناً إلى مليارات السنين، وتمدد، وما زال يتمدد مكاناً في الكون كله. الغرض من هذا التأطير النظري هو الوقوف على طبيعة التفاعلات التي تتم في فضاء الاجتماع الإنساني عندما يسوده هذا النظام الاجتماعي بحيث يؤدي هذا التفاعل، في الزمان والمكان، إلى واقع اجتماعي مُعَيَّن دون غيره، علماً بأن منتهى (limits) هذا النظام الاجتماعي الفطري هو أحد نظامين اجتماعيين، هما النظام الاجتماعي الديني (شكل رقم 3)، والنظام الاجتماعي التوحيدي (شكل رقم 4).

نقطة أخيرة تتعلق ببروز "الهوى" كأحد مكونات النظام الاجتماعي العام في الشكل رقم (2) رغم أن الهوى هو في حقيقته حال للنفس، ومُحَقِّزٌ لملهمات الفجور فيها، ومن ثم يمكن أخذه في الاعتبار عند تحليل النفس باعتبارها المكوّن الجزئي الأساس للنظام. وقد عرّف المرحوم الدكتور حسن الترابي الهوى بأنه:

"جماع الميول الفطرية التي تتجه بالإنسان إلى متاع الحياة الدنيا، فإذا طأوعه واتبع دواعيه أوقعه في أسر اللذات الأرضية المحسوسة حتى يصبح كل همه في أن يأكل ويتمتع كشأن البهائم، وحتى يذبل عنصره الروحي، وينبت الحبل بينه وبين عالم الغيب. ولا يزال الهوى بصاحبه حتى يبطل سركرامته على سائر الأشياء، ويعطل تعلقاته العلوية من فرط شغله بالشهوة السفلية، بل حتى يغضي بصيرته جميعاً فلا يرى إلا ما تحت قدميه، ولا يُعنى إلا بالقريب العاجل، لا ينظر في حياته لمآلاتها البعيدة، ولا يُقدّم شيئاً لأجلته. وما دام عبدُ الهوى أعماه في دنياه يأخذ منها كيفما اتفق عاجلاً بعاجل، ولا يخطط لها تديراً، أو نهجاً شاملاً، فأولى أن يغفل جملة واحدة عن آخرته".³

² - "الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم"؛ محمد الحسن بريمة. مجلة إسلامية المعرفة، ع83، 2016م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي؛ واشنطن.

³ - الإيمان: أثره في حياة الإنسان؛ حسن عبد الله الترابي. دار القلم (1983)، الكويت.

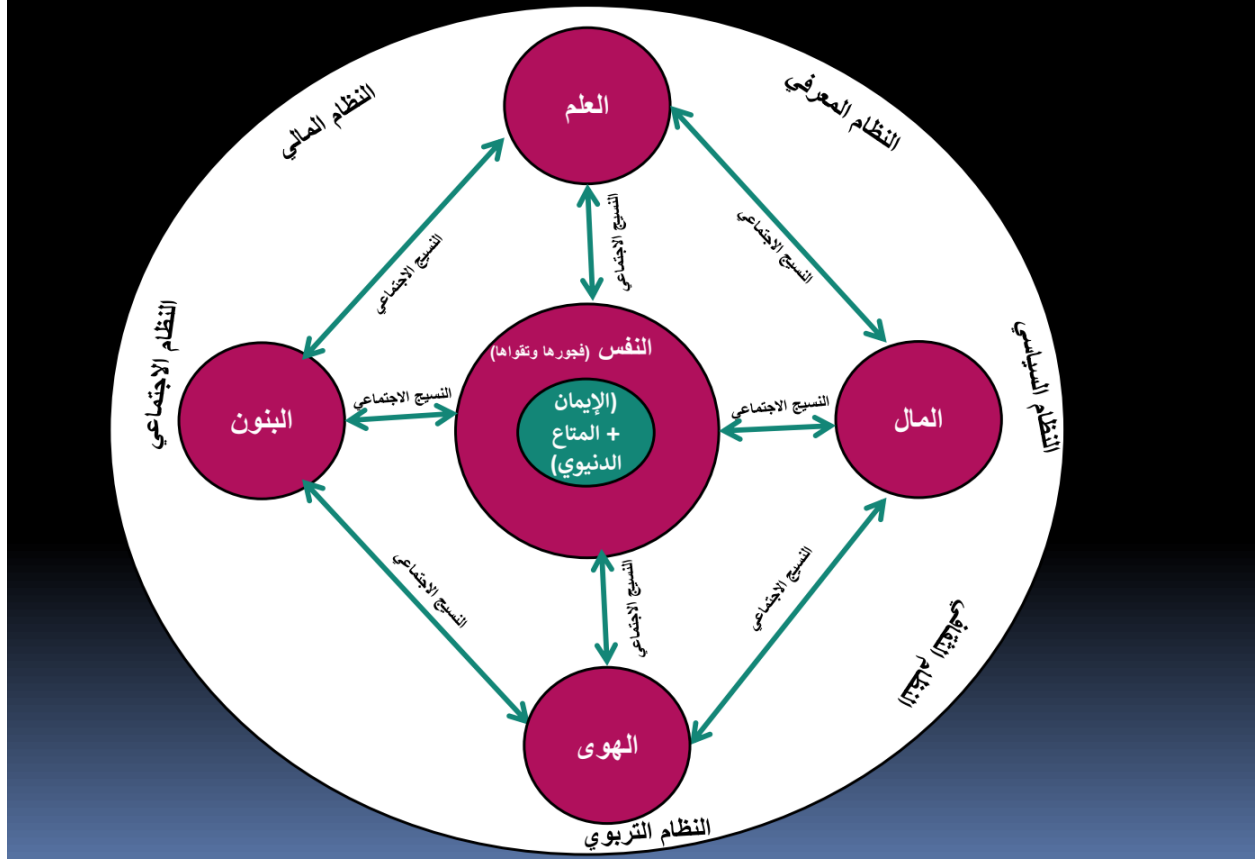
السبب في إفراط "الهوى" بهذا الوضع المميز هو أنه يقوم مقام (proxy) "الشيطان" عند تحليل النموذج، إذ لا يمكن رصد الشيطان وفعله مباشرة، لأنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم نحن البشر، ولكننا نفترض، تأسيسا على الوحي الكريم، أن أثره على الفعل والتفاعل الاجتماعي يمكن رصده عندما ينطلق الفعل الاجتماعي لدى المؤمن من محض الهوى، ويؤثر سلبا على خيارات الفرد الحياتية الراشدة، ومن ثم على قدرته على تحقيق مقاصده الدينية التي هي مقاصد الشريعة الإسلامية، على أي مستوى من مستوياتها. أما في حالة غير المسلم فيكون أثر الشيطان على مستويين، الأول جعله يستحب الكفر على الإيمان، ومن ثم يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة؛ والمستوى الثاني تأثيره على فعله وعلى خياراته الحياتية عندما يكون الفعل مخالفا للمصالح الدنيوية المعتبرة عقلا، المؤسسة على معايير الضر والنفع، المصلحة والمفسدة. وسوف نذكر لاحقا كيفيات العمل "المكّنّمات" التي يوظفها الشيطان للإيقاع بالإنسان، وتلك التي أمر الشارع المسلم بتفعيلها للنجاة من كيده.

الشكل رقم (3) يحتوي على نموذج نظام الاجتماع الدنيوي الخالص، الذي هو أحد نهايات (limits) النظام الاجتماعي الفطري العام، وهو نموذج لنظام اجتماعي مثالي يمكننا من رصد وتحليل التفاعلات التي تجري في فضاء الاجتماع الإنساني عندما يسوده نظام الاجتماع الدنيوي الخالص. الشكل رقم (4) يحتوي على نموذج نظام الاجتماع التوحيدي الخالص، وهو النهاية الأخرى، المقابلة لنظام الاجتماع الدنيوي، التي ينتهي إليها النظام الاجتماعي العام، وهو نموذج لنظام اجتماعي مثالي يمكننا من رصد وتحليل التفاعلات التي تجري في فضاء الاجتماع الإنساني عندما يسوده نظام الاجتماع التوحيدي الخالص.

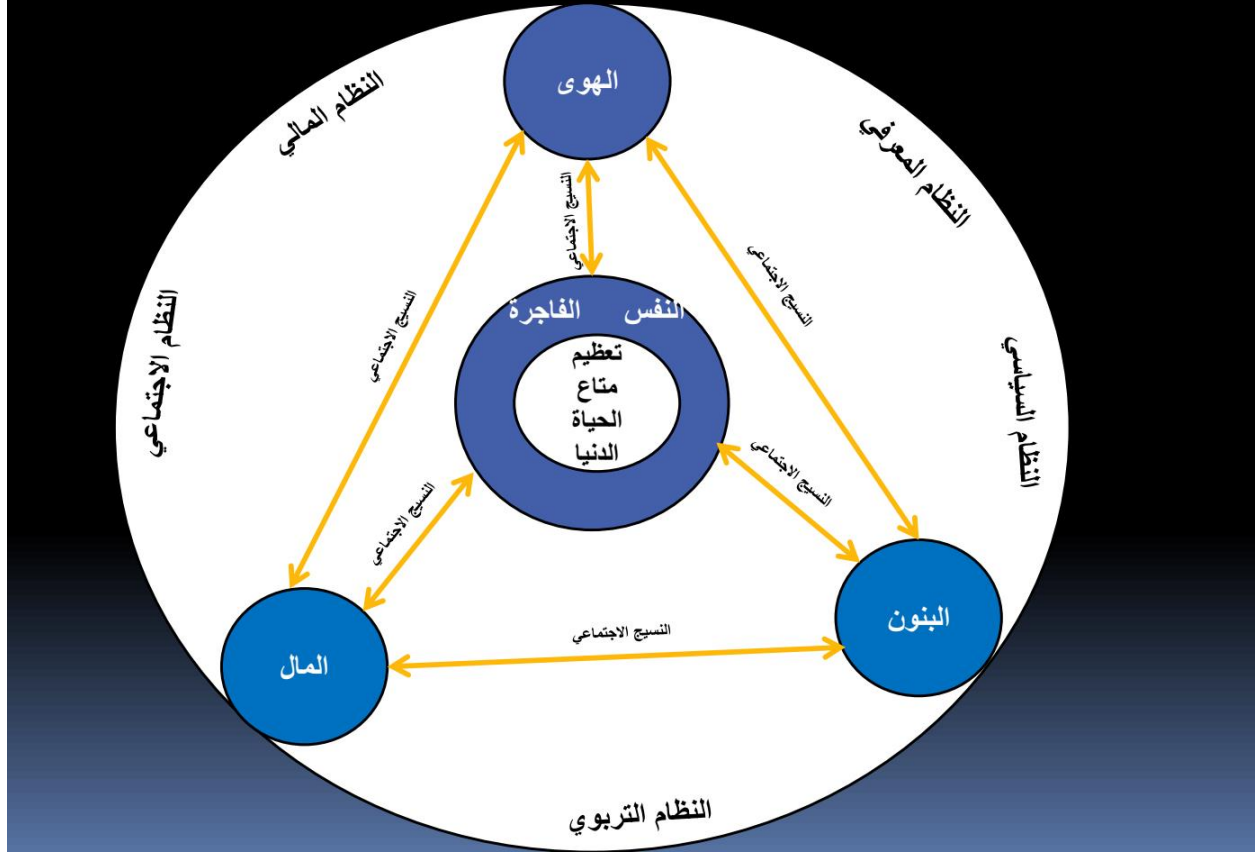
الشكلان رقم (5)، ورقم (7) يعبران عن نموذج نظام الواقع الاجتماعي، وهو يقع في المنطقة الحدودية بين النظامين الدنيوي والتوحيدي، حيث يتقاطع النظامان، أو يتجاوران في الزمان والمكان، وذلك بسبب أن النظم الاجتماعية هي نظم مفتوحة، بمعنى أن حدودها قابلة للاختراق من قبل النظم المجاورة لها، التي هي بيئتها التي تتأثر بها وتؤثر فيها. لذلك فإن نظام الواقع الاجتماعي هو دائما محصلة التفاعل الحدودي بين النظامين الدنيوي والتوحيدي، وقد تغلب عليه سمات أحد النظامين بحسب قوة التأثير لعوامل المد والجزر المتبادل بينهما على الدوام.

بعد هذا التوصيف للنظم الاجتماعية الجوهرية المنبثقة من رؤية القرآن للعالم ننقل إلى المرحلة الأهم من البحث وهي توظيف المنهج النظمي الموصوف في بحثنا المشار إليه سابقا للتعرف على أهم سمات هذه النظم من حيث مكوناتها؛ نسيجها؛ بيئتها وكيفيات العمل (المكّنّمات) الفاعلة فيها، وهي المرحلة الأخيرة من هذا البحث، الذي يمثل برنامج البحث العلمي في النظم الاجتماعية ومنهج دراستها تأسيسا على رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني بحسب اجتهاد الباحث.

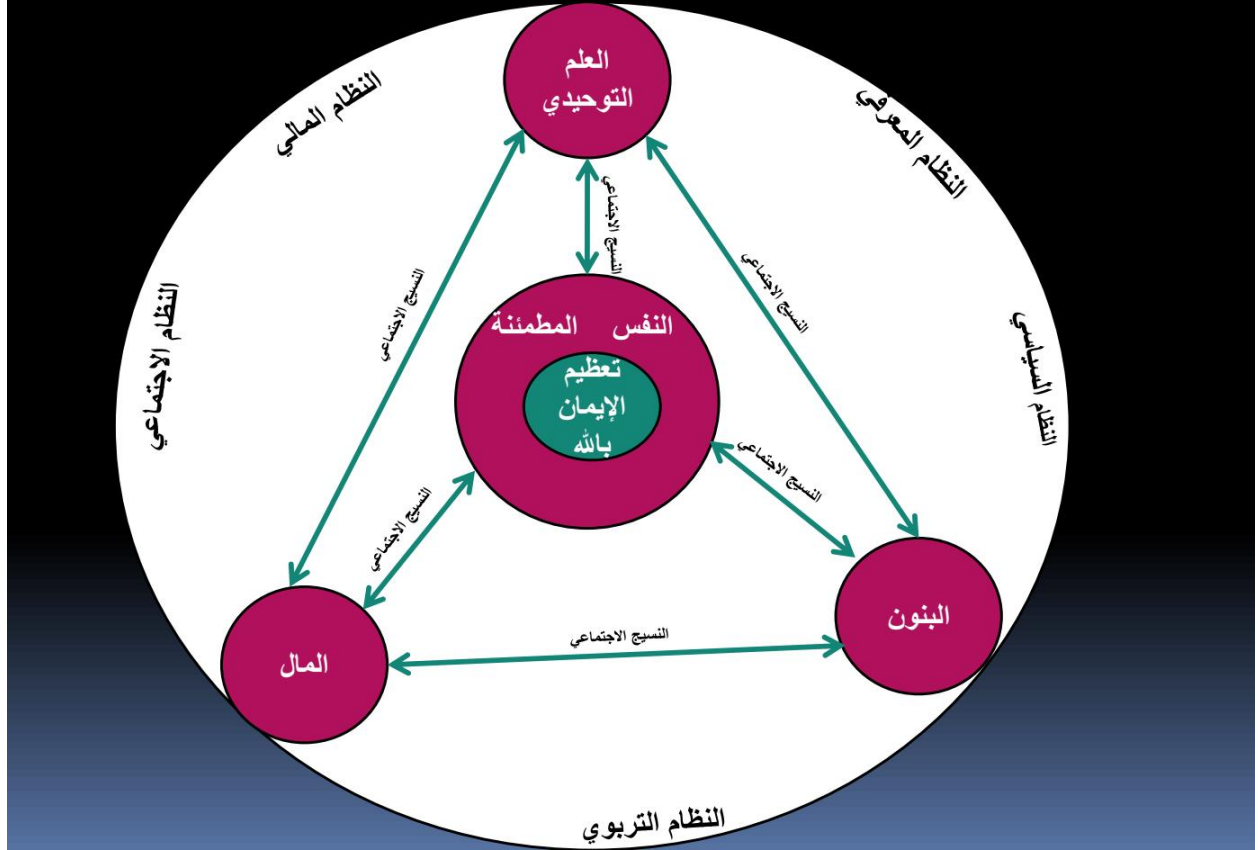
شكل رقم (2): نموذج النظام
الاجتماعي العام



شكل رقم (3): نموذج
نظام الاجتماع الدنيوي

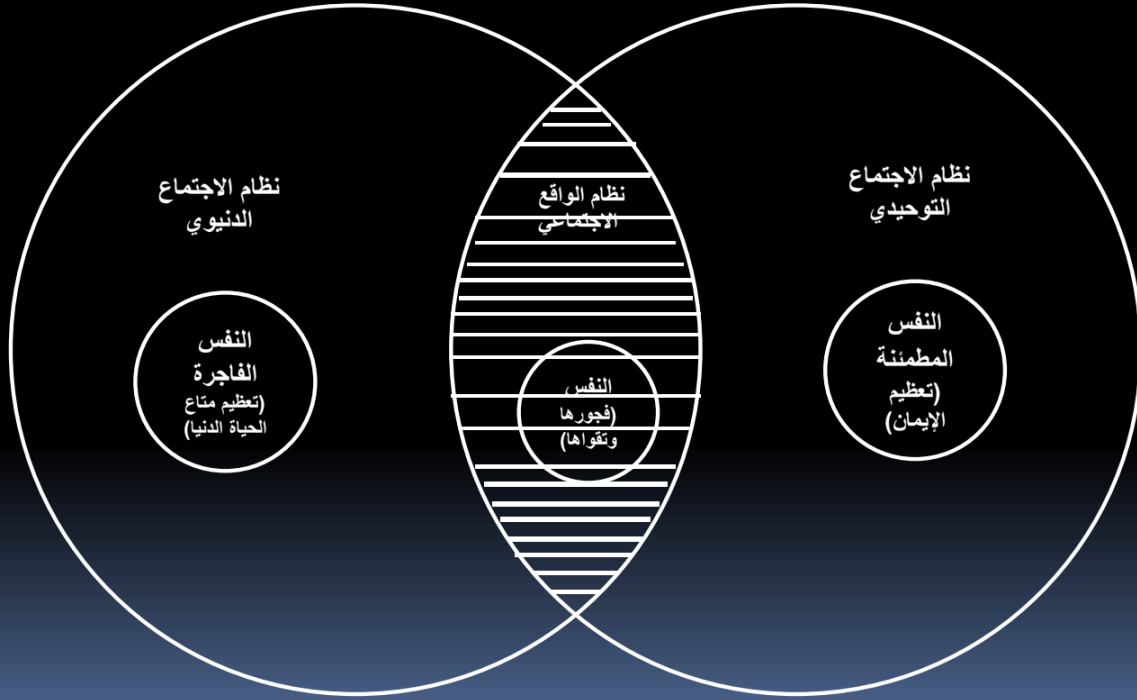


شكل رقم (4): نموذج نظام
الاجتماع التوحيدي



شكل رقم (5)

نموذج نظام الواقع الاجتماعي



4- دلالة المنهج النظمي على النظم الاجتماعية

1.4- انبثاق الإنسان في رؤية القرآن للعالم

النظم الاجتماعية في هذا البحث هي كائنات اجتماعية "تنبثق" من الفعل والتفاعل الاجتماعي بين آحاد الناس في إطار جماعة معينة من الناس يحدها الزمان ولربما المكان. لذلك لا بد أن يكون المدخل المنهجي الصحيح هو الإجابة عن سؤال: من هو هذا الإنسان ذو الخواص السببية التي تُحدث كل هذه الآثار الاجتماعية بظواهرها التي لا تحصى؟

الإجابة عن هذا السؤال تقتضي استدعاء أمرين، أولهما مفهوم "الانبثاق" الذي شرحنا معناه في بحثنا سابق الذكر عن "الطريقة النظامية" لماريو بنج. نكتطف الآن من ذلك البحث بما يخدم الغرض الذي نحن بصدد:

"يُعتبر أي مظهر من مظاهر الوجود تم العثور عليه في مستوى معين من التنظيم (organization) "منبثقاً" (emergent) إن كان هناك احتمال لنشأته من مستوى وجودي أدنى، وتم تكييفه (conditioned) من قِبَل خواص (properties) ذلك المستوى الأدنى ويعتمد عليها، ولكن لا يمكن التنبؤ به من خلال العلم التام بتلك الخواص، أي من خلال النظام.

بالنسبة لماريو بنج فإن "الانبثاق" هو تصنيف وجودي (ontological category) للخواص النوعية الجديدة والطريقة (novel) في النظم، ويمكن، من حيث المبدأ، تفسيره من خلال أجزاء النظام والتفاعل بينها. ويرى كذلك أن هدف العلم ليس فقط الاعتراف بالتصنيف (categorization)، والوضع الوجودي "للانبثاق"، ولكن إدراجه في نظريات تمكّن من تفسيره، وأحياناً التنبؤ به. ولكن علينا أن نتذكر دائماً أن تفسير "الانبثاق" لا يعني زوال صفة الانبثاق عنه، لأن الانبثاق الذي تم تفسيره لا يقل طرفاً عن الذي ما زال لغزاً، فالانبثاق هو قضية وجودية (ontological) وليست معرفية (epistemological). إن دعوى "الانبثاق" هي دعوى تتعلق بالعلاقة بين خواص (properties) الكليات (wholes) وخواص أجزائها (parts) في إطار عملية التطور، بينما التفسير (explanation)، أو التنبؤ (prediction) هو فرضية (thesis) معرفية تتعلق بقدرات البشر في لحظة محددة من التطور العلمي على تفسير الخواص المنبثقة من خلال خواص مكونات النظام، أو استنباط الأولى من الثانية".

ويقصد بالخواص المنبثقة لكائن ما تلك الخواص، أو القوى الذاتية له التي بها يؤثر سببها في العالم، فمثلاً، من الخواص المنبثقة الذاتية للماء أنه يطفئ النار، وأنه يروي الظمأ، بينما تنعدم هذه الخواص في مكوناته من الأيدروجين والأكسجين. الأمر الثاني الذي لا يستقيم فهم طبيعته وحكمة الخلق الإلهي للإنسان إلا به هو ما أطلقت عليه اصطلاحاً "خطة الخلق العامة" التي فضّلتها رؤية القرآن للعالم في البحث الأول الذي أشرت إليه في مبتدأ هذه الورقة، لأن المقصد الإلهي من خلق الإنسان الذي يبينه التدبير الإلهي في الخطة يفسّر لنا لم خلق الله تعالى الإنسان على الهيئة التي سوف نتبين معالمها أدناه. إن قول الله تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات....) إنما يفهم في إطار نسبة هذا الخلق إلى الابتلاء والامتحان في زينة الحياة الدنيا (المال والبنون) ومآله مما بينته خطة الخلق العامة، وهو امتحان لا بد أن يخوض كل إنسان غماره في هذه الحياة الدنيا ليؤول أمره إلى مآلين أشارت إليهما الآية الكريمة بعد الخلق في أحسن تقويم. لكن إن لم نستحضر هذه العلاقة التناسبية بين حقيقة الابتلاء وحقيقة الخلق الإنساني فسوف يعسر الفهم للحكمة من خلق الإنسان بالطريقة المعجزة التي خلقه الله بها، وبها تميز عن سائر الخلق، كما بينها القرآن الكريم، وكما سوف نحاول في الصفحات التالية نمذجتها في قالب نُظمي.

نستنبط من رؤية القرآن للعالم التي قام الباحث باستخلاصها وتطويرها سنين عدداً أن خلق الإنسان شهد أربعة أنواع من "الانبثاق" قبل أن يستوي الإنسان بشراً سوياً، وفي أحسن تقويم من حيث استعداداته الفطرية لخوض امتحان زينة الحياة الدنيا الذي هو قدره في هذه الحياة. نوجز هذه الأربعة أنواع من الانبثاق في الآتي:

1.1.4- انبثاق الجسم البشري

الانبثاق الأول للإنسان بحسب الترتيب القرآني هو انبثاق الجسم البشري الحي من تفاعلات الطين المتخمر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر)، وقد جعل الله تعالى من الماء كل شيء حي. والجسم البشري أعَد، فيما أرى، لثلاث مهام في هذه الحياة الدنيا، أولها؛ استقبال الروح المنفوخة فيه والتفاعل معها، والثانية؛ أشرت إليها أعلاه، وهي خوض غمار ابتلاء زينة الحياة الدنيا الذي هو قدر الإنسان في هذه الحياة، والثالثة، حفظ النوع البشري عن طريق التناسل، وحفظ تنوعه عن طريق نقل المورثات الجينية، فقد جعل الله تعالى نسل بني آدم في ظهورهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ

مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَرِفِينَ ١٧٢ ﴿ (الأعراف)؛ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٩﴾ (السجدة)؛ ﴿أَلَمْ يَكُنْ بِكَ نُطْفَةٌ مِنْ مَّاءٍ يَمَتَّى ٣٧ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً خَلَقَ فَسَوَّى ٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٣٩﴾ (القيامة)؛ ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ ٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٧﴾ (الطارق)، فلم تعد هناك حاجة إلى أن يخلق الله تعالى كل إنسان كما خلق أباه آدم بيديه أول مرة، بل تكفي برمجة الجسم الطيني لكل إنسان قَدَّر الله أن يخلقه على هيئة جسم آدم إن كان ذكرا، وجسم حواء إن كانت أنثى، لتتناقل عبر الأجيال في أصلاب الرجال وترايب النساء حتى إذا اقترب الوعد الحق في تجسده بشرا سويا في الزمان والمكان، كان: ﴿مَّا خَلَقْكُمْ وَلَا يَعْلَمُكُمْ إِلَّا كُنُفُسٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ٢٨﴾ (لقمان). ولعلنا نستخدم مجازا لغة الكمبيوتر لإيصال المراد بأقصر طريق، لأن الله تعالى خلق الإنسان وما يعمل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦﴾ (الصافات)، فنعتبر في هذا بذاك، فنقول: ربما إن الجسم البشري تتحكم في كل مراحل نموه برمجيات مُحَكِّمة على شاكلة برمجيات الكمبيوتر، لعلها برمجيات المورثات الجينية، حتى إذا تمت تسويته في الرحم جاء الملك فنفع فيه الروح، لينتج عن ذلك التفاعل الانبثاق الثالث للإنسان وهو "النفس"، بينما الروح هي الانبثاق الثاني له، كما سوف نبين لاحقا إن شاء الله تعالى. قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلَقَةً مُّضْغَةً فَخَلَقْنَا أَلْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَنَّاكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ١٤﴾، وقد ورد في صحيح مسلم الحديث الشريف الآتي نصه: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلْقَةً مِّثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِّثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ يَكْتُبُ رُفْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ قَوْلَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا".

الجسم البشري الحي هو نظام حيوي يستوفي جميع الشروط الوجودية المادية لنظام الكائن الحي، وله خواصه السببية المنبثقة التي لا توجد في عناصره الأولية المكونة له (الخلايا)، مثل إمكان: "الحركة، السمع، البصر، الشم، اللمس، الذوق، التفكير، العاطفة... إلخ" باعتباره محل الخواص السببية الروحية التي لا يمكن تفعيلها عمليا إلا من خلال ما يشاكلها من الخواص السببية الجسمية. وهي قوى سببية موجودة فيه بالقوة، ولكنها تتحول إلى الفعل بعد اكتمال مراحل الانبثاق الأخرى للإنسان. ولكل إنسان بصمة جسمية خاصة به بحيث لا يتطابق جسمان ولو كانا توأمين، فلكل إنسان بصمته اللونية، والبنائية، والعينية، واللسانية... إلخ يكتسبها من خلال مورثاته الجينية كما يبين ذلك العلم الحديث.

وتتم دراسة الجسم البشري في العلوم الغربية السائدة الآن، طبيعية واجتماعية، باعتباره الإنسان في كليته، وباعتباره نظاما حيويا ماديا، من حيث "مكوناته"، "نسيجه"، "مكثزاته" و"بيئته". كذلك يتم البحث في هذا الإنسان على المستوى الفيزيائي، الكيميائي، الحيوي، النفسي والاجتماعي باعتبارها المستويات الجوهرية التي ينبنى عليها الجسم البشري الحي، ولا يبحثون فيما وراء ذلك بحكم فلسفة العلوم الوجودية المهيمنة، وهي فلسفة مادية لا تؤمن بوجود غير مادي. إذن الجسم البشري يضرب بجذوره في الكون وتتجسم فيه جميع العناصر المكونة له بمستوياتها المختلفة، فيزيائية وكيميائية وحيوية.

2.1.4- انبثاق الروح

الانبثاق الثاني للإنسان بحسب القرآن الكريم يتمثل في انبثاق الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٨٥﴾ (الإسراء)؛ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ٢٩﴾ (الحجر). نسبة للأهمية البالغة لمفهوم "الروح" و"النفس" في بحثنا هذا، وما يترتب عليه من برنامج بحث علمي في مجال العلوم الاجتماعية انطلاقا من الوحي الكريم، فقد رأيت أن أخص دلالة المفهومين في التراث المعرفي الإسلامي بقسم، ودلالتهما في الإطار النظمي الذي يقوم عليه البحث بقسم آخر.

1.2.1.4- مفهوم الروح في التراث المعرفي الإسلامي

يجمع هذا القسم خلاصات ترجيحات ابن قيم الجوزية في القضايا الجوهرية التي أثارها التراثيون عن الروح مما حوى كتابه "الروح" الذي جمع فأوعى.⁴ وقد اعتمدت على خلاصات ابن القيم لمرجعياته العلمية عند أهل السنة، المستقدمين منهم والمتأخرين، كما يوفر ذلك فرصة للقارئ للاطلاع على النقلة النوعية التي يدخلها المنهج النظمي في الإجابة عن سؤال من هو الإنسان.

⁴ - الروح؛ ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

يورد ابن القيم في المسألة السابعة عشرة السؤال الآتي:

"هل الروح قديمة أم محدثة مخلوقة؟ وإذا كانت محدثة مخلوقة، وهي من أمر الله، فكيف يكون أمر الله محدثا مخلوقا؟ وقد أخبر سبحانه أنه نفخ في آدم من روحه، فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا؟ وما حقيقة هذه الإضافة؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة".

يستعرض ابن القيم آراء مختلف الفرق الإسلامية والعلماء في الأسئلة أعلاه ثم يرد عليها، وقد ترجح لديه الآتي، مبتدئا بآية نفخ الروح في آدم:

"وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف، وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم.... وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة".

أما بشأن إضافة الروح إليه تعالى فيقول ابن القيم:

"وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله: (ونفخت فيه من روحي)، فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان:

صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها. فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة. وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف إليه عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكا له. وكذلك "ناقة الله"، والنوق كلها ملكه وخلق له لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربييته حيث تقتضي خلقه وإيجاده.

فالإضافة العامة تقتضي الخلق والإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار. والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه، كما قال تعالى: (وربك يخلق ما يشاء ويختار) (القصص، 68). وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة، لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفات".

ويقول فيما يتعلق بخلق الروح البشرية:

"ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها، وكونها، واختراعها؛ ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه.... وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: روح الآدمي مخلوقة مبتدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة".

"فهذه الروح المقبوضة هي النفس التي يتوفاها الله حين موتها وفي منامها، وهي التي يتوفاها ملك الموت، وهي التي تتوفاها رسل الله سبحانه. وهي التي يجلس الملك عند رأس صاحبها، ويخرجها من بدنه كرها، ويكفنها بكفن من الجنة أو النار، ويصعد بها إلى السماء، فتصلي عليها الملائكة أو تلعنّها، وتوقف بين يدي ربها، فيقضي فيها بأمره. ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه، فتسأل وتمنح وتعاقب وتنعم. وهي التي تجعل في أجواف الطير الخضراء تأكل وتشرب من الجنة. وهي التي تعرض على النار غدوا وعشيا.

وهي التي تؤمن وتكفر، وتطيع وتعصي. وهي الأمانة بالسوء، وهي اللوامة، وهي المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره. وهي التي تعذب وتنعم، وتسعد وتشقى، وتحبس وترسل، وتصح وتسقم، وتلد وتألّم، وتخاف وتحزن. وما ذاك إلا سمات مخلوق مبدع، وصفات مُنشأ مُخترع، وأحكام مربوط مدبر مُصَرَّف تحت مشيئة خالقه وفطره وبارئه".

"والروح في القرآن على عدة أوجه: أحدها: الوحي، كقوله تعالى: (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) (الشورى 52)؛ (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) (غافر: 15). وسمي الوحي روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من يشاء من عباده المؤمنين، كما قال: (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) (المجادلة؛ 22).

الثالث: جبريل، كقوله تعالى: (نزل به الروح الأمين 193 على قلبك) (الشعراء؛ 193-194)، وقال تعالى: (من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) (البقرة؛ 97). وهو روح القدس، قال تعالى: (قل نزله روح القدس) (النحل، 102).

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود، فأجيبوا بأنها من أمر الله. وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون) (النبأ، 38)، وأنها الروح المذكورة في قوله تعالى: (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم) (القدر، 4).

الخامس: المسيح ابن مريم قال تعالى: (إنما المسيح عيسى- ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه) (النساء، 171).

وأما أرواح بني آدم، فلم يقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس. قال تعالى: (يا أيها النفس المطمئنة) (الفجر، 27)، وقال: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة، 2)، وقال: (إن النفس لأمارة بالسوء) (يوسف، 53)، وقال: (أخرجوا أنفسكم) (الأنعام، 93)، وقال: (ونفس وما سواها، 7 فآلهمها فجورها وتقواها) (الشمس، 7-8)، وقال: (كل نفس ذائقة الموت) (آل عمران، 185). وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح. والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة".

أورد ابن القيم، في المسألة الثامنة عشرة، السؤال الآتي: هل تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها؟ بعد استعراضه لعدد وافر من آراء الفقهاء في المسألة ترجح لابن القيم تأخر خلق الروح عن خلق الجسد مقدما أدلته في ذلك:

"وأما الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها، فمن وجوه: أحدها: أن خلق أبي البشر وأصلهم كان هكذا. فإن الله سبحانه أرسل جبريل، فقبض قبضة من الأرض، ثم خمرها حتى صارت طينا، ثم صورته، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صورته. فلما دخلت الروح فيه صار لحما ودما، حيا ناطقا.... فالقرآن والحديث والآثار تدل على أن الله سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده، فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح".

وقد رد ابن القيم آراءه السابقة بأدلة كثيرة من القرآن والسنة النبوية، يمكن للقارئ أن يرجع إليها في كتابه المذكور.

2.2.1.4- مفهوم الروح في نظرية النظم الاجتماعية في رؤية القرآن للعالم

بحسب المنهج النظمي الذي نعتمد في هذا البحث، وبعد تلخيص موجز لرأي السلف الذي أورده ابن القيم في القضايا المتعلقة بالروح والنفس، فإننا نبني على فرض أن "الروح" التي نفخها الله تعالى في البشر الطيني هي كائن مخلوق، وبما أن كل كائن متميز وجوديا عن غيره من الكائنات هو نظام فإن النتيجة هي أن "الروح" نظام انبثق عن تفاعل مكوناته، ويعتمد وجوده عليها. تأسيسا على ذلك نعرف الروح بأنها "كائن معنوي منبثق عن التفاعل بين عناصره المكونة له، وهي الصفات، أو القوى السببية الإلهية التي خلق الله تعالى بها الكون، وجاء الكون استجابة لضرورية لفعاليتها مثل العلم، الإيمان، المودة، الرأفة، الرحمة، السمع، البصر، العدل، الإحسان، الصبر، الشكر، السلام، الإبداع، اللطف، العزة، القوة، الجبرة، المتانة، الهيمنة، القدرة، الإرادة... إلخ". ولما قدر الله تعالى أن يكون الإنسان خليفته في الأرض، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه حتى يتحرك فيهما بلا عوائق، كان لابد أن يكون له من الخواص السببية ما يقتضي استجابة الكون لوقعها بالفعل الإنساني، وليس من قوى سببية أعظم وأدعى أن يستجيب الكون المسخر لوقعها بهذا الفعل الإنساني من تلك التي جاء الكون استجابة لوقعها بالفعل الإلهي. وإذا كانت القوى السببية الإلهية مطلقة عند الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس)، فنصيب الإنسان منها نسبي، وهذا النصيب مخلوق خلقا يناسب الإنسان في مهمته الاستخلافية عن الله تعالى في الأرض. ومهمة الروح ككائن معنوي هي جعل هذه القوى السببية الإلهية عنصرا جوهريا في خلق الإنسان من خلال نفخها في الجسد الطيني الذي انبثق أولا كما أسلفنا. أما أن هذه الصفات الإلهية يخلقها الله تعالى في شكل خلق يناسب المخلوقات التي تدخل في تكوينها فدلينا في ذلك الحديث الشريف المروي في الصحيحين: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةً رَحْمَةً أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِيهَا يَتَرَحَّمُ الْخَلْقُ حَتَّى إِنَّ الدَّابَّةَ لَتَرْفَعُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ وَاحْتَبَسَ عِنْدَهُ تَسْعًا وَتَسْعِينَ رَحْمَةً فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ هَذِهِ إِلَى تِلْكَ فَرَحِمَ بِهَا عِبَادَهُ). ولنتذكر كذلك أن "الماء" هو رحمة مخلوقة: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥٠﴾ (الروم). والرسول، صلى الله عليه وسلم، هو رحمة متجسدة في شكل إنسان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء). إن القيمة العملية لهذا المنهج في التنظير سوف تظهر عندما نتناول الانبثاقين الأخيرين للإنسان، وهما انبثاق "النفس"، وانبثاق "الإنسان" في كليته كإنسان.

النسيج الذي يربط بين هذه القوى السببية الإلهية، المخلوقة بما يتناسب مع خلق الإنسان، في تفاعلها المؤدي إلى انبثاق "الروح"، هو (لا إله إلا الله)، وهو ذات النسيج الذي يمسك الكون من الزوال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكُمُ اللَّحْمَ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤١﴾ (فاطر)، ولو أن الإنسان واصل سعيه الحثيث الآن إلى منتهاه في تفكيك المادة الكونية إلى عناصرها الأولية لانتهى إلى (لا إله إلا الله): ﴿سَرَّيْهِمْ ءَاتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٥٢﴾ (فصلت).

الصفات الإلهية مطلقة السببية في الذات الإلهية، ولهذا الإطلاق السببي جاء "الكون" استجابة ضرورية لكن فيكون، ولكنها نسبية السببية في الذات الإنسانية، وهي أساس الخلق الإنساني الذي سقفه خلق الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾ (القلم). ولذلك تأتي استجابة الكون بالصلاح للعمل الإنساني نسبية أيضا بمقدار تفعيل الإنسان لهذه القوى السببية الإلهية كنظام "نسيجه" لا إله إلا الله، و"بيئته" هي الكون المسخر للإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ (الجمعة)، و"مكنزماته" هي كيفيات العمل الإنساني في سعيه الاستخلافي في الأرض⁵: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٤﴾ (يونس)، ووظيفته هي تمكين الإنسان من استباق الخيرات بالإحسان في هذا العمل الإنساني: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا... ٧﴾ (هود)؛ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ٢﴾ (الملك)؛ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٤٨﴾ (البقرة)؛ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٤٨﴾ (المائدة).

الفرض الأساس الذي ننطلق منه فيما يتعلق بالروح هو أنها كائن معنوي انبثق من التفاعل بين مكوناته التي هي الصفات الإلهية المذكورة آنفاً، وهي (الروح) التي بنفخها في الجسد الطيني الحي، تحركت قواه السببية الكامنة فيه من القوة إلى الفعل، وصار الإنسان خلقاً آخر يختلف نوعه عن باقي خلق الله، وبها استحق التكريم والتفضيل. إن الكثافة المادية للجسد الطيني، وكثافة الشهوات التي تنبعث من قبل حاجات بقائه المادية، وكثافة المعاصي التي يفتريها الإنسان بسبب حب هذه الشهوات هي التي تجدد من الفاعلية السببية الكونية للصفات الإلهية التي حملها الإنسان بنفخ الروح فيه، ولولا ذلك لكان من الممكن للإنسان بإيمانه أن يطير في الهواء، ويمشي في الماء، ويسمع دبيب النملة في الصخرة الصماء، ويرى أبعد مما تراه أقمار التجسس المصنوعة، ولصافحته الملائكة في الطرقات، كما ورد في صحيح مسلم: (ولو كانت تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذَّكَرِ، لَصَافَحْتُمْ الْمَلَائِكَةَ، حَتَّى تُسَلَّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطَّرِيقِ)، ولتسع قلبه لحب الله فكان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن استعاضه ليعيذته، ولئن سأله ليعطيته. وكل ذلك تدير إلهي محكم اقتضته طبيعة الابتلاء الذي جعله الله تعالى قدراً للإنسان في هذه الحياة الدنيا.

الروح بهذا التعريف هي كائن غير قابل للفناء والفساد، وهي نظام جامع للصفات الإلهية في نسبيتها الإنسانية، ولأن الصفات لا قوام لها بذاتها بل لابد لها من حامل يحملها، فقد عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان لأنه هو ذلك الكائن المقصود بتلك الصفات الجليلة، المخلوق خلقاً لا صلاح له إلا بحمل تلك الصفات. وقد وصفه الله تعالى في ذلك الحمل بأنه كان ظلوماً جهولاً، فقد ظلم على الدوام حق تلك القوى السببية العظيمة بعدم تفعيلها في الكون بالوجه الذي يحقق الصلاح للإنسان في نفسه، والصلاح في الأرض خاصة، وفي الكون عامة، والشكر لله على نعمته، بل كان ديدنه هو توظيفها للإفساد في الأرض، وهو جهول بالمآلات والعواقب التي يؤدي إليها ظلمه وإفساده هذا. لكن تظل التركيبة الروحية في الإنسان هي كنز تحرره من سجن نفسه، ومن سجن غيره، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

والروح بهذا التعريف والتكليف هي نظام واحد يوجد في جميع الناس لأنه أساس تكريم الإنسان، وأساس التفاضل بين الناس في مواقف الإيمان والكفر. والأخلاق والأعمال، جليلها وحقيرها، إنما تأتي من النفس البشرية بمقدار تخلقها بالصفات الإلهية في نسبيتها الإنسانية كنظام روحي تكون هذه الصفات هي العناصر المكونة له، وبمقدار جعلها أساساً للفعل والتفاعل الاجتماعي في البيئة الخارجية. ودراسة الروح إنما تتم من خلال دراسة مكوناتها، أي الصفات الربانية في نسبيتها الإنسانية، ودراسة نسيجها (التوحيد)، ودراسة علاقتها ببيئتها الداخلية التي يمثلها الإنسان في كليته، ودراسة تفاعلها مع البيئة الكونية الخارجية، لاسيما زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، ودراسة كيفيات عمل (مكنزمات) التركية التي ينبغي أن يفعلها المؤمن في

⁵ - سوف نستخدم من الآن فصاعداً مصطلح (كيفية العمل) المستخلص من قول الله تعالى (كيف تعملون)، أو مصطلح (مسار العمل) المحوّر من قول الله تعالى (قل سبيروا في الأرض) بدلاً عن المصطلحين الإنجليزيين (social mechanism)، و (social pathway)، وهما بمعنى واحد، في دراستنا للنظم الاجتماعية، أياً كان نوع ومستوى الدراسة.

كل خاصية من الخواص الإلهية الثاوية في الروح، مثلاً العلم، الإيمان، الرحمة، العدل، الإحسان، الصبر، الشكر... إلخ حتى تصبح هي خواصه النفسية العملية.

إن الصفات الربانية التي تهيات للإنسان بنفخة الروح فيه تربطه ربطاً وثيقاً بعالم الأمر الإلهي الذي جاءت منه، فكل صفة من هذه الصفات طرفها الأدنى عند الإنسان وطرفها الأعلى عند الله تعالى، وهو تعالى الذي يقبض ويبسط منها لكل إنسان بمقدار سعيه في التخلق بها طلباً لها من مظانها، وبمقدار التحقق بها في الحياة العملية صلاحاً في الأرض: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ﴾ (النحل)؛ ﴿فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۝١٩﴾ (النمل)؛ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَكُنْ فِطْرًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ ۝١٥٩﴾ (آل عمران)؛ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِزِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً﴾ (الحديد)؛ ﴿فَبِمَا نَقُضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ (المائدة)؛ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنُ وَرَزَقَنَاهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ۝٧﴾ (الحجرات).

وكل صفة من هذه الصفات الربانية التي كرم بها الإنسان مفتوحة على ما يناسبها من خزائن الله التي لا تنفذ: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ (الحجر)؛ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٨٩﴾ (آل عمران)؛ ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا ۝١٠٠﴾ (الإسراء)، وهو تعالى ينفق منها على من يشاء من عباداه كيف يشاء، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۝٦٤﴾ (المائدة)؛ ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُرْسِلُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾ (فاطر)؛ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۝٢٦﴾ (الزمر)؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝٣٠﴾ (الإسراء)، وفي الصحيحين عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَ مَائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِيهَا يَتَرَحَّمُ الْخَلْقَ حَتَّىٰ إِنَّ الدَّابَّةَ لَتَرْفَعُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ وَاحْتَبَسَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتَسْعِينَ رَحْمَةً فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جُمِعَ هَذِهِ إِلَى تِلْكَ فَرَجَمَ بِهَا عِبَادَهُ). فتأمل كيف تحولت الرحمة، وهي صفة ربانية، إلى خلق من خلق الله، وخزنة من خزائنه ينفق منها على مخلوقاته، وقس على ذلك بقية الصفات.

وهذه الصفات الربانية لدى الإنسان هي التي بها تهياً لاستقبال رسالة السماء عبر رسل الله لتقام بذلك الحجة عليه، فمن شاء آمن ومن شاء كفر: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝١٧٢﴾ (الأعراف). وهذه القوى السببية الإلهية التي استقرت في فطرة الإنسان هي مدارج السالكين إلى الله تعالى، ولكل درجات مما عملوا. وهي تهياً للإنسان المؤمن بأسباب لا محدودة للعمل الصالح المبدع في الكون يبتغي به الوسيلة إلى الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥﴾ (المائدة)؛ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ (الإسراء)، وفي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَيَصْرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَأَنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ أَسْتَعَاذَنِي لَأُعِيدَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ). والمؤمن الذي يكون هذا حاله يمكن أن يأتي بالخوارق: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ (النمل)؛ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ (الكهف).

الصفات الإلهية في نسبتها الإنسانية هي مصدر المعايير الأخلاقية والقانونية للإنسان في إطار فعله وتفاعله الاجتماعي، سواء كان ذلك في مجتمع يُعبد فيه الله تعالى، ويقام فيه الدين، أو في مجتمع دنيوي يرتبط سعيه بتحقيق المنافع الدنيوية لا غير. المجتمع الأول يكون فيه الفعل الاجتماعي المؤطر بهذه المعايير الأخلاقية عبادة لله تعالى، وما ينتج عنه من آثار يكون عملاً صالحاً يعمر الأرض بالصلاح، وفي المجتمع الدنيوي تصير فيه هذه الصفات الإلهية منشأً للمعايير الأخلاقية والقانونية النفعية، لأن النفع الدنيوي لا يتحقق في المجتمع على الجملة إلا بالتزام حد أدنى من هذه المعايير مثل الرحمة، العدل، الإحسان، الصبر... إلخ. إن المعيارية ظاهرة بشرية بامتياز، ولا يمكن للجسم الطيني المادي أن يكون مصدراً لما هو غير مادي، فصار من الموضوعي أن تكون الروح هي مصدرها.

والإنسان قد ينسى وجود هذه القوى السببية لديه، وما تقتضيه من علاقة بالله تعالى، ولا يؤسس عليها فعله وتفاعله مع الحياة، أو يوظفها للدنيا فقط جلباً للمصالح ودرءاً للمفاسد الآتية، أو يسعى بها في الأرض فساداً: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنْ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ (الروم)؛ ﴿وَإِذَا لُفُّوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾ (البقرة)؛ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ﴾ (محمد)؛ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ (هود). والذي يفعل ذلك يكون قد ظلم نفسه لأنه نسي الله الذي أمدّه بأسباب صلاحه في هذه الحياة الدنيا، ومن ينسي الله ينساه الله، وينسيه نفسه، أي ينسيه حقيقة وجوده في هذه الحياة الدنيا: ﴿الْمُتَفَقِّهُونَ وَالْمُتَفَقِّهَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٦٧﴾ (التوبة)؛ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ١٩﴾ (الحشر)؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَّهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَآسَفْنَاهُ اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ٦﴾ (التغابن).

3.1.4- انبثاق النفس

3.1.4.1- النفس في التراث الإسلامي

طرح ابن القيم في المسألة التاسعة عشرة في كتابه "الروح" الأسئلة الآتية:
"ما حقيقة النفس؟ هل هي جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه، أو جسم مساكن له منفوخ فيه، أو جوهر مجرد؟ وهل هي الروح أو غيرها؟ وهل الأمانة واللّوامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات، أم هي ثلاثة أنفس؟"
 انتصر ابن القيم للرأي القائل بأن النفس هي:

"جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم. فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية. وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح".

علق ابن القيم على التعريف أعلاه بقوله: "وهذا القول هو الصواب في المسألة، وهو الذي لا يصح غيره، وكل الأقوال سواه باطلة، وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، وأدلة العقل والفطرة". وقد أورد مائة وستة عشرة دليلاً من القرآن والسنة والعقل يؤيد بها هذا الاختيار لمفهوم النفس، ويمكن للقارئ الرجوع إليها في كتابه المذكور.

المسألة عشرون في كتاب الروح احتوت على السؤال الآتي: هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟

يجيب ابن القيم بالآتي:

"النفس تطلق على أمور: أحدها: الروح. قال الجوهري: النفس الروح؛ يقال: خرجت نفسه. والنفس الدم، يقال: سالت نفسه. والنفس الجسد. والنفس العين. يقال: أصابت فلاناً نفساً، أي عين. قلت: ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإصابة إلى العين توسع؛ لأنها تكون بواسطة النظر المصيب. والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم. قلت: والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها، كقوله تعالى: (فسلموا على أنفسكم) (النور، 61)؛ وقوله: (ولا تقتلوا أنفسكم) (النساء، 29)؛ وقوله: (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) (النحل، 111)؛ وقوله: (كل نفس بما كسبت رهينة) (المدثر، 38).

وتطلق على الروح وحدها، كقوله تعالى: (يا أيها النفس المطمئنة) (الفجر، 27)؛ وكقوله: (أخرجوا أنفسكم) (الأنعام، 93)؛ وكقوله: (ونهي النفس عن الهوى) (النازعات، 40)؛ وقوله: (إن النفس لأمارة بالسوء) (يوسف، 53). وأما الروح فلا تطلق على البدن، لا بانفراده، ولا مع النفس.

وسميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج. فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً. ومنه النَّفْس - بالتحريك - فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجاً كلياً، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه. فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات، لا فرق بالذات. وإنما سمي الدم نفساً لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلزم خروج النفس، وأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس.

وقالت فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف: الروح غير النفس. قال مقاتل بن سليمان: للإنسان حياة وروح ونفس، فإذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء، ولم تفارق الجسد، بل تخرج كحبل ممتد له شعاع، فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه، وتبقى الحياة والروح في الجسد، فبه يتقلب ويتنفس. فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفه عين، فإذا أراد

الله عز وجل أن يميته في المنام أمسك تلك النفس التي خرجت. وقال أيضا: إذا نام خرجت نفسه، فصعدت إلى فوق، فإذا رأت الرؤيا رجعت، فأخبرت الروح، ويخبر الروح القلب، فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت. قال أبو عبد الله بن منده: ثم اختلفوا في معرفة الروح والنفس، فقال بعضهم: النفس طينية نارية، والروح نورية روحانية. وقال بعضهم: الروح لاهوتية، والنفس ناسوتية، وإن الخلق بها ابتلي. وقالت طائفة، وهم أهل الأثر: إن الروح غير النفس، والنفس غير الروح، وقوام النفس بالروح. والنفس صورة العبد، والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها، ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه، فالنفس لا تريد إلا الدنيا، ولا تحب إلا إياها. والروح تدعو إلى الآخرة، وتؤثرها. وجعل الهوى تبعا للنفس، والشيطان مع النفس والهوى، والملك مع العقل. وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها عن الخلق. وقال بعضهم: الأرواح نور من نور الله، وحياة من حياة الله، ثم اختلفوا في الأرواح: هل تموت بموت الأبدان والأنفس، أو لا تموت؟ فقالت طائفة: الأرواح لا تموت ولا تبلى. وقالت جماعة: الأرواح على صور الخلق، لها أيد وأرجل وعين وسمع وبصر ولسان.

قلت: أما الروح التي تتوفي وتقبض، فهي روح واحدة، وهي النفس. وأما ما يؤيد الله به أوليائه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح، كما قال تعالى: (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) (المجادلة، 22). وكذلك الروح التي أيد بها روحه المسيح ابن مريم كما قال تعالى: (إذ قال الله يا عيسى- ابن مريم اذكر نعمتي التي أنعمت عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) (المائدة، 110). وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن. وأما القوى التي في البدن فإنها أيضا تسمى أرواحا فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشام. فهذه الأرواح قوى مودعة في الأبدان تموت بموت الأبدان. وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن، ولا تبلى كما يبلى.

وتطلق الروح على أخص من هذا كله، وهو قوة المعرفة بالله، والإنابة إليه، ومحبته، وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته. ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن. فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه. وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته. ولهذا يقول الناس: فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح، وهو بؤ، وهو قصبه فارغة، ونحو ذلك. فللعلم روح، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل والصدق روح. والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح، فيصير روحانيا. ومنهم من يفقدها أو أكثرها، فيصير أرضيا بهيميا. والله المستعان".

أورد ابن القيم في المسألة الواحد والعشرين السؤال الآتي: هل النفس واحدة أم ثلاثة؟ ثم أجاب:

"فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس؛ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى. ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: (يا أيها النفس المطمئنة) (الفجر، 27)، وبقوله: (لا أقسم بيوم القيامة 1 ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة، 1-2)، وبقوله: (إن النفس لأماراة بالسوء) (يوسف، 53).

والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم. فتسمى "مطمئنة" باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه. وإن سمة محبته وخوفه ورجائه فناؤها عن محبة غيره وخوفه ورجائه. فتفنى بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه. فالطمأنينة إلى الله سبحانه كيفية ترد منه سبحانه على قلب عبده، تجمع عليه، وترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به، وبصر به، ويتحرك به، وببطش به. فتسري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، فتجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه. ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره، وهو كلامه الذي أنزله على رسوله، كما قال تعالى: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (الرعد، 28). فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله وذكره البتة. وأما ما عداه، فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز.

قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له: أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والاضطراب من جهته، كأنه ما كان؛ بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله وسلبه وزايله. وقد جعل الله سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضا لسهام البلاء، ليُعلم عباده وأوليائه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع. وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة: أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله؛ فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان، وانشراح الصدر له، وفرح القلب به؛ فإنه تعرّف من تعرّفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله. فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى، وصفاته، وتوحيده، وعلوه على عرشه، وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه. فينزل ذلك عليه نزول الماء

الزلزال على القلب الملهب بالعطش، فيطمئن إليه، ويسكن إليه، ويفرح به، ويلين إليه قلبه ومفاصله، حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل. بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم، وقال إذا استوحش من الغربة: قد كان الصديق الأكبر مطمئناً بالإيمان وحده، وجميع أهل الأرض يخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً. فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه. وهذا أمر لا نهاية له.

فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي عليها قام بناؤه. ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة، حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً. وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه أهل الإيمان حيث قال: (وبالآخرة هم يوقنون) (البقرة، 4).

وأما اللوامة، وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة، 2) فاختُلف فيها. فقالت طائفة هي التي لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلؤم، وهو التردد، فهي كثيرة التقلب والتلون. وهي من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة - فضلاً عن اليوم والشهر والعام والعمر - ألواناً متلونة، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتلطف وتكثف، وتنيب وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتعصي، وتتقي وتفجر، إلى أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها، فهي تتلون كل وقت ألواناً كثيرة. فهذا قول.

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم. ثم اختلفوا، فقالت فرقة هي نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المحمودة. قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً، يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى، ونحو هذا من الكلام.

وقال غيره: هي نفس المؤمن توقعه في الذنب، ثم تلومه عليه فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها، وتلومه على فواته.

وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين، فإن كل أحد يلوم نفسه، برا كان أو فاجراً. فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرى: هذا اللوم يوم القيامة، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إساءته، وإن كان محسناً على تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتباره سميت لوامة، ولكن اللوامة نوعان: لوامة ملومة: وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته. ولوامة غير ملومة: وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده، فهذه غير ملومة. وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت ملام اللاتمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله لها. وأما من رضيت بأعمالها، ولم تلم نفسها عليها، ولم تحتمل في الله ملام اللوم، فهي التي يلومها الله عز وجل.

وأما النفس الأمارة، فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكل سوء. وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله، وثبتها، وأعانها. فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له، كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز: (وما أبرئ نفسي- إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم) (يوسف، 53). وقال تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً) (النور، 21). وقال تعالى لأكرم خلقه عليه، وأحبهم إليه: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً) (الإسراء، 74).

وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يعلمهم خطبة الحاجة: "إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له". فالشر- كامن في النفس، وهو موجب سيئات الأعمال. فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله. فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين: الأمارة، واللوامة؛ كما أكرمه بالمطمئنة. فهي نفس واحدة تكون أمارة، ثم لوامة، ثم مطمئنة، وهي غاية كمالها وصلاحها. وأيد المطمئنة بجند عديدة، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها ويسددها، ويقذف فيها الحق، ويرغبها فيه، ويربها حسن صورته، ويزجرها عن الباطل، ويزهدها فيه، ويربها قبح صورته. وأمددها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات وأمداد التوفيق تنتابها وتصل إليها من كل ناحية. وكلما تلقتها بالقبول، والشكر، والحمد لله، ورؤية أوليته في ذلك كله، ازداد مددها، فتقوى على محاربة الأمارة. فمن جندها - وهو سلطان عساكرها ومليكها - الإيمان واليقين. فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه، إن ثبت ثبوت، وإن انهزم ولّت على أدبارها.

ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره: شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصيحة الخلق، والإحسان إليهم بأنواع الإحسان؛ وشعبه الباطنة

المتعلقة بالقلب، كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة، وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله، وتعظيم أوامر الله وحقوقه، والغيرة لله وفي الله، والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة. وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق. فلا يتعنى الصادق المخلص، فقد أقيم على الصراط المستقيم، فيسار به وهو راقد. ولا يتهنى من حرم الصدق والإخلاص، فقد قطعت عليه الطريق، واستهوته الشياطين في الأرض حيران، فإن شاء فليعمل، وإن شاء فليترك، فلا يزيده عمله من الله إلا بعدا. وبالجملة فما كان لله وبالله، فهو من جند النفس مطمئنة. وأما النفس الأمانة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها، فهو يعدها ويمنيها، ويقذف فيها الباطل، ويأمرها بالسوء ويزينه لها، وبطيلها في الأمل، وبريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها، ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأماني الكاذبة والشهوات المهلكة. ويستعين عليها بهواها وإرادتها، فمنه يدخل عليها، ويدخل عليها كل مكروه. فما استعان على النفوس بشيء هو أبلغ من هواها وإرادتها البتة".

2.3.1.4- مفهوم النفس في نظرية النظم الاجتماعية في رؤية القرآن للعالم

المرحلة الثالثة من انبثاق الإنسان هي في انبثاق "النفس" من التفاعل بين الجسم الحيوي والروح حاملة الخواص السببية الإلهية إليه. والنفس في القرآن الكريم غير الروح، فعندما تكلم الله تعالى في القرآن عن "الروح" التي نفخها في الإنسان لم يفصح عن حقيقتها، وإن ثبت فيما نقلناه عن ابن القيم أنها كائن مخلوق، بينما تكلم عن خواص "النفس" وأوصافها وأحوالها في الحياة، وفي المنام، وفي الممات، وأنها هي المكلفة في هذه الحياة الدنيا، وأنها هي المحاسبة في الدار الآخرة، وأنها حقيقة الإنسان: ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ۚ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَفَّوْهَا ۙ﴾ (الشمس)؛ ﴿وَمَا أَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا نَفْسًا لَّامَارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾ (يوسف)؛ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۚ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤﴾ (لقمان)؛ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ (الزمر)؛ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم ۚ ۝٩٣﴾ (الأنعام)؛ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ (المدثر).

الله تعالى عندما تكلم عن خلق الإنسان لم يفرد النفس بالخلق كما فعل فيما يتعلق بالجسم الطيني، بل ذكر مرحلتين فقط في تكوين الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٢٩﴾ (الحجر)؛ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٧٢﴾ (ص). أستنتج من ذلك أن النفس تكونت وتمت تسويتها داخل هاتين المرحلتين، إما في المرحلة الأولى أثناء تسوية الجسم الطيني، ومن ثم فهي جزء منه، وإما في المرحلة الثانية بعد نفخ الروح فيه، ومن ثم فهي منبثقة من هذا التفاعل الثنائي بين الجسم والروح، بحسب المفهوم النظمي للانبثاق. والذي رجح لي هو خيار الانبثاق لسببين اثنين، أولهما ما ذكرت أعلاه، وما ذكره ابن القيم من خواص النفس التي تجعلها مختلفة تماما عن الجسم الطيني، وثانيهما ذكر القرآن أن سيدنا عيسى عليه السلام صار جسما ونفسا بعد نفخ الروح في السيدة مريم عليها السلام: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقْتِ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَاتَّقِ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٢﴾ (التحريم)؛ ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝٩١﴾ (مريم).

"النفس" بهذا الانبثاق هي كائن كلي، حي ومدرك، وهي نظام يستمد وجوده من مكوناته (الروح، الجسد)، ومن التفاعل الدائم بين هذه المكونات داخل قلب الإنسان، ولكن النفس تختلف عنهما من حيث خواصها السببية المنبثقة التي لا توجد في أي من هذه المكونات منفردة، وإن كانت لها أيضا خواص مكتسبة من الخواص السببية للجسم الطيني والخواص السببية للروح. لذلك ينبغي التمييز بين الخواص المكتسبة والخواص المنبثقة في أي كائن، فالأولى هي خواص توجد في مكوناته ومنها يكتسبها، والثانية هي خواص جديدة وجدت مع انبثاق الكائن وتميزه عن غيره من الكائنات، ولا توجد هذه الخواص المنبثقة في أي من أجزائه المكونة له منفردا، وبها يفعل في الكون ويتميز أثر فعله عن باقي الكائنات. من الخواص المنبثقة في النفس البشرية تلك التي تكون نقيضا للصفات الإلهية المكتسبة من الروح، وتصبح منافسا إقصائيا لتلك الصفات الربانية، بل وتسود النفس في كل الأحوال عند من لا يؤمن بالله تعالى، وفي معظم الأحوال عند المؤمنين ممن ضعف كسبهم في التركية، وكثير ما هم، وفي بعض الأحوال عند السابقين بالخيرات، فالرحمة نقيضها القسوة، والعدل نقيضه الظلم، والصبر نقيضه الجزع، والبر نقيضه الفجور... إلخ. وأصل ذلك ما ذكره القرآن الكريم عن تسوية النفس، من حيث إلهامها فجورها وتقواها، بخواص تؤهلها لابتلاء زينة الحياة الدنيا؛ فمن الخواص التي تقودها إلى الفجور "الشح"، "الهلع"، "الضعف"، "العجلة"، "الكبر"، "الحسد"... إلخ.

ونفترض مرة أخرى أن النسيج الذي يربط بين الروح والجسم في تفاعلها الذي تنبثق منه نفس الإنسان هو (لا إله إلا الله)، أو بمعنى آخر (كن فيكون)، فالطبيعة الغيبية للروح تجعل من غير الممكن، على الأقل في الحال الراهن للعلم، الدراسة

التجريبية لكيفية ارتباطها بالجسم البشري. وهو افتراض آمن، بل مسلمة إيمانية غيبية يحتملها التنظير في حال تعذر الوصول إلى افتراض أقرب رُحماً إلى التجريب. وقد لا يكون ذلك مُهماً ما دام هذا التفاعل ثمرته هي النفس المنبثقة القابلة للدراسة التجريبية. وقد ذكر ابن القيم فيما نقلناه عنه أن القرآن الكريم يتكلم عن النفس فقط ويريد بذلك الروح، وذلك حسب تحليلنا عائد إلى أن الروح بعد نفخها في الجسم صارت مكوناً من مكونات النفس، ولم يعد لها وجود مستقل داخل الجسم. هذا التفاعل المنتج للنفس البشرية مكانه ابتداء هو "القلب" الذي في "الصدر"، بالمعنى القرآني للمفهومين، مما سوف نفضله في بحوث لاحقة إن شاء الله تعالى.

هناك حديث نبوي صحيح رواه البراء بن عازب، رضي الله عنه، وصححه الألباني، له دلالة على الطبيعة الوجودية للنفس المنبثقة من هذا التفاعل بين الروح والجسم نورد ما يلينا منه في هذا المقام:

"كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرَقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَهُوَ يُلَحِدُ لَهُ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، كَأَنَّ عَلَى وَجُوهِهِمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَخَنَوطٌ مِنْ خَنَوطِ الْجَنَّةِ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا إِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الْخَنَوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأُطْيَبِ نَفْحَةٍ مِشْكٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ".

الحديث النبوي الشريف يشير إلى حقيقة وجودية للنفس تتعلق ببعد مادي مائي فيها إذ أنها تخرج "تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء"، وأنها توضع في كفن وحنوط، ولها ريح طيب كرائحة المسك، فماذا لو كان هذا هو الأثر السببي للجسم في تفاعله مع الروح الذي انبثقت منه النفس، لاسيما وأن معظم الجسم البشري يتكون من الماء مع قليل من أخلاط الأرض. ولنتذكر أن الله تعالى يخبرنا في القرآن الكريم في آيات كثيرة أن الإنسان خلق من الماء، كما هو حال كل دابة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٤﴾ (الفرقان). كذلك فإن الماء هو في حقيقته صفة إلهية هي "الرحمة"، ولكنها متجسدة في كائن مخلوق يناسب حاجات الإنسان وغيره من مخلوقات الله تعالى، لذلك فهو يمت بوشيجة قوية للصفات الإلهية المعنوية التي جاءت بها الروح من عالم الأمر الإلهي. وللماء خواص منبثقة تناسب الطبيعة الوجودية للنفس البشرية، فهو قد يكون سائلاً، أو جامداً، أو بخاراً لا يرى بالعين المجردة، وهو يصعد في الجو ويسير مع الهواء، وهو يهبط وينسلك ينابيع في الأرض، أو يصبح غوراً في باطنها، وهو يتغلغل في تركيبة الكائن الحي، وهو يأخذ شكل الوعاء الذي يتحيز فيه. وكل هذه الخواص قد أثبتتها ابن القيم للنفس البشرية فيما نقلناه عنه من كتابه "الروح". إذن من مسلمات هذا البحث أن الماء مكون وجودي في النفس البشرية.

لعل من المفيد في هذا المقام كذلك أن نثبت للماء أنه خلق مبارك من خلق الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَةً لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ١٠ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ١١﴾ (ق)، وأن هذا الماء المبارك كان عليه عرش الرحمن، تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٧﴾ (هود). إذن الروح خلق من أمر الله في عالم الغيب، والماء المبارك خلق بقدر الله في جسم الإنسان في عالم الشهادة، فالتقى الماء والروح على أمر قد فُدير فكان الانبثاق العظيم للنفس البشرية بخواصها السببية المميزة، فلا هي كائن مادي خالص، ولا هي كائن روحي خالص، وربما هذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٤﴾ (المؤمنون). من الخواص الروحية للنفس تأتي تعلقاتها العلوية فهي ملهمات التقوى فيها، ومن الخواص المادية للنفس تأتي تعلقاتها الدنيوية فهي ملهمات الفجور فيها، وعلى الاثنين معا يتأسس ابتلاء زينة الحياة الدنيا (المال والبنون).

لعل مثال العلاقة بين "الماء" ككائن منبثق وبين مكوناته من الأوكسجين والهيدروجين تقرب إلى الذهن طبيعة العلاقة بين "النفس" ككائن منبثق وبين مكوناتها من "الماء" و"الروح"، فنحن لا نرى الأوكسجين ولا الهيدروجين، كما لا نرى التفاعل بينهما، ولا نرى "البنية" التي في إطارها يتم هذا التفاعل الذي ينبثق منه "الماء"، ولكننا نرى فقط جزيء الماء (molecule) الذي هو كائن مادي لا توجد خواصه السببية المنبثقة (emergent properties) في مكوناته منفردة، مثلاً خاصية أن الماء يطفئ النار فهي لا توجد في أي من الأوكسجين والهيدروجين. في المقابل تصير بعض خواص هذه المكونات خواص مكتسبة (resultant properties) لجزيء الماء بحكم وجودها في مكوناته (أجزائه). كذلك فإن بقاء الماء كماء، واستدامة هذا البقاء

رهن بقاء الأوكسجين والأيدروجين متحدين في إطار التركيبة الكيميائية المعروفة (H₂O)، فإذا اختلّت هذه المعادلة لم يبق هناك ماء.

الآن نقدم الأدلة الشرعية على أن الإنسان كائن حي خلق من الماء، ومن ثم فإن الروح الإلهية المنفوخة فيه إنما تتفاعل مع هذا الماء الساري في الجسد وما يحمله من أخلاط الجسم المادية المختلفة، ونتيجة لذلك فإن النفس الإنسانية تنبثق من هذا التفاعل كما أسلفنا. يقول تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤٥﴾ (النور)، والإنسان دابة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥﴾ (الأنفال)، ويقول: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ٢٠﴾ (المرسلات)؛ ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٤﴾ (الفرقان)؛ ويقول: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرَجَهَا فَتَقَحَّنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَانِتِينَ ١٢﴾ (التحریم)، فالمسيح عيسى، صلى الله عليه وسلم، خلق من اتحاد نفخة الروح الإلهية مع ماء مريم البتول، رضي الله عنها، وبذلك صار عيسى، عليه السلام، بشرا يأكل الطعام.

النفس، إذن، تنبثق في قلب الإنسان الذي في صدره من التفاعل بين القوى السببية الروحية والقوى السببية المادية بعد نفخ الروح فيه، وتتغلغل في سائر جسمه عن طريق الدم الذي يجري في عروقه لتتحيز داخل الجسم المعين، وتأخذ صورته بحكم الخواص المائية فيها. وربما لهذا السبب عندما يفقد الإنسان معظم دمه دفعة واحدة يفقد أيضا نفسه ويموت. هذا المكون الجسماني في النفس مع تحيزها في الجسم وصورته هي التي تجعل ابتداء نفس كل شخص متميزة عن غيره، لأن لكل جسم بصمته الوراثية الخاصة به فلا يتطابق جسمان. وتكسب هذه الخواص الوراثية الجسمية النفس خواص تميزها عن غيرها في مجال الخواص الحسية من سمع، وبصر، وشم، ولمس، وذوق، وكلام، وذكاء... إلخ. ويؤثر هذا التمايز بين الأنفس، المكتسب وراثيا، على تجربة النفس الحياتية وهي تخوض ابتلاء زينة الحياة الدنيا، مما يؤثر بدوره على كسبها من ملهفات الفجور وملهفات التقوى، ومن ثم على جملة كسبها من الفعل والعمل.

يستمر هذا التفاعل بين الروح والماء الجسمي، الضامن لبقاء النفس في قلبها، مدى حياة الإنسان على هذه الأرض. ففي القلب يغور ويمور حب الشهوات المادية كاللذة والفرح المنبثقة من زينة الحياة الدنيا (المال، البنون) التي رزق حبها للناس، ويمدها الشيطان، عدو الإنسان، بأسباب من عنده: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَن أَسْتَظَعْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ (الإسراء)، فتقع النفس فريسة سهلة لها، وتتوثر الركون إليها، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ١٦﴾ (الأعلى)؛ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن رَّكَهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ١٠﴾ (الشمس). وحب الشهوات هو قوى منبثقة في النفس وليست مكتسبة من الجسم، فالجسم لا حظ له في الشهوات بل مطلوبه هو الغذاء اللازم لحفظه من بروتينات ونشويات وسكريات وفيتامينات... إلخ. ولكن ضرورات الجسم المادية هذه هي جزء من كفايات عمل (مكزمات) الابتلاء في زينة الحياة الدنيا التي تقود النفس إلى التعرف على اللذات المودعة في الأطعمة المختلفة التي أنعم الله بها على الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وذلك من خلال النظام المعقد للفم، لا سيما اللسان، عندما تبدأ عمليات المعالجة الأولى للغذاء قبل انتقاله للمعدة. وحظ الجسم من هذه الأطعمة لا يبدأ غالبا إلا بعد أن تجتاز هذه الأطعمة الفم وتستقر في معمل المعدة لتبدأ عملية الفرز للمكونات الغذائية المختلفة مما يحتاجه الجسم لبقائه.

ولكن في القلب أيضا توجد ملهفات التقوى كالعلم والإيمان والعدل والإحسان والرحمة، وبالجملة كل القوى السببية الإلهية التي جاءت بها الروح وصارت قوى مكتسبة للنفس، فإن هدى الله العبد إلى الإيمان أكسبها هذا الإيمان من خلال التزكية بعدها الغيبي الرباني فجاشت في القلب متدافعة مع ملهفات الفجور، ويرجى أن تكون الغلبة لها في ابتلاء زينة الحياة الدنيا. هكذا تتدافع كل هذه القوى السببية في قلب الإنسان الذي آمن فيعيش تجربة الابتلاء في تقلبات النفس بين أمارة بالسوء تارة، ولوامة تارة أخرى، إلى أن ينتهي به منهج التزكية الذي يتبعه، إن وفقه الله تعالى، إلى نفس مطمئنة ليبدأ مشوارا آخر في مدارج السالكين إلى رب العالمين، وهو مشوار لا ينتهي إلا بالموت، ولكل درجات مما عملوا، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا.

إذن "النفس" في الإنسان هي كائن حي منبثق، مستقل يجمع بين الخواص السببية الإلهية للروح في نسبيتها البشرية، وبين الخواص السببية المادية للجسم، وهي ما يسميه علم النظم بالخواص المكتسبة، ويزيد عليها بخواص سببية منبثقة تميزه عن كليهما، ذكر معظمها ابن القيم فيما نقلناه عنه سابقا، وذكرنا بعضها مما أثبتناه أعلاه للماء من خواص. لكن بينما معظم الخواص السببية الروحية المعنوية توجد ابتداء بالقوة في النفس المنبثقة، ولا توجد فيها بالفعل إلا إذا تم تفعيلها اختيارا من قبل الإنسان، فإن الملائم من الخواص المادية للحكمة من خلق النفس، مثلا حب الشهوات، أسبق بالفعل من الخواص

الروحية فيها لأن الجسم المادي للإنسان يحتاج إلى الوفاء بمقومات بقائه المادية حتى والطفل في بطن أمه، لاسيما بعد نفخ الروح فيه وانبثاق نفسه ومسؤوليتها عن نموّه كإنسان، ثم بعد خروجه إلى الحياة الدنيا أول عهده بها وهو أحوج إلى غذاء البدن منه إلى غذاء الروح. لذلك تسبق بأمد بعيد تعلّقات النفس الدنيوية، لاسيما حب الشهوات، تعلّقاتها الأخروية، وما لم يتم تدارك النفس بالتربية وبالتركية باكراً فإنه يعسر على الخواص الروحية إيجاد سبيل لها إلى النفس البشرية بعد ذلك، ولعل هذا هو السبب في تقديم ملهفات الفجور في النفس على ملهفات التقوى في القرآن الكريم، وربط فلاح الإنسان بالتركية لنفسه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۙ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ﴾ (الشمس).

هكذا يخرج الإنسان من بطن أمه، وقد خلّق في أحسن تقويم من حيث استعداداته الفطرية لخوض ابتلاء زينة الحياة الدنيا، وليبدأ مرحلة جديدة تؤدي إلى الانبثاق الرابع والأخير الذي يؤهله للنداء الإلهي: يا أيها الإنسان. ويمكن تلخيص هذه الاستعدادات الفطرية في ثلاث خواص كلية، هي: الخواص العقلية، وهي معنية بكسب العلم؛ الخواص الوجدانية، وهي معنية بتحويل العلم إلى إيمان؛ والخواص الإرادية، وهي المعنية بتحويل ما كسبته الخاصيتان قبلها إلى فعل إرادي في الكون، أي فقه العمل وإحكامه (إنقائه). لهذا جاء الوحي من الله الذي خلق الإنسان مخاطباً هذه الخواص تحديداً فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَيَّيَّاسِينَ﴾ (الجمعة). هذه، في رأي الباحث، هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا تبديل لخلق الله، وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَيْهَمَةِ تُنْتَجُ الْبَيْهَمَةُ هَلْ تَرَى فِيهَا جَذْعَاءً".

4.1.4- انبثاق الكائن البشري

نقصد بالكائن البشري الإنسان في كليته، المخاطب من قبل الله تعالى بـ "يا أيها الإنسان"، وهي الكلية التي يشير إليها كل إنسان بـ "أنا"، وجوهرها النفس التي عرّفناها أعلاه، ولكن الإنسان في كليته أكبر من نفسه المنبثقة من تفاعل الروح وماء الجسم، والدليل على ذلك أنه مخاطب في القرآن الكريم بتركية نفسه: (قد أفلح من زكّاه وقد خاب من دساها)؛ وكذلك في قوله تعالى: (أخرجوا أنفسكم)؛ وفي قوله (بل الإنسان على نفسه بصيرة)، وغيرها كثير من الآيات التي تفيد أن الإنسان في كليته مهيم على نفسه في كليته، ومسؤول عن إدارتها. هذا الإنسان في كليته هذه كائن منبثق من مكوناته الداخلية (النفس + الجسم) والتفاعل بينها، ثم من تفاعلها مع مكونات بيئتها الخارجية. هذه البيئة الخارجية منها ما هو من عالم الشهادة، ومنها ما هو من عالم الغيب. فضاء عالم الشهادة يتكون بصورة أساسية من زينة الحياة الدنيا (المال والبنون)، حيث الابتلاء والامتحان، فهنا الموارد المادية، بشرية وطبيعية، حيث يحتاج الجسم إلى الوفاء بضروراته الحيوية من مأكّل، ومشرب، وملبس، ومسكن، ووقاع، وحيث تتعرّف النفس إلى ما تحبه من الشهوات المودعة في تلك الموارد، ثم من الأرض والسماء إجمالاً. التفاعل الذي يتم بين مكونات الإنسان الداخلية ممثلة في نفسه وجسمه، والمكونات الخارجية المادية ممثلة في الموارد البشرية والطبيعية، وما عملته يد الإنسان فيها، هو المسؤول ابتداءً عن نشأة المجتمعات من خلال الفعل والتفاعل الاجتماعي، كما فصلناه من قبل في بحثنا عن رؤية القرآن للعالم (خطة الخلق العامة).

مكونات فضاء عالم الغيب تتمثل في الجن، ومنهم الشياطين، والملائكة، وهي وإن كانت لا يراها الإنسان إلا أن القرآن الكريم يخبرنا بأنها مؤثرة في التفاعل الذي يتم في فضاء عالم الشهادة، لاسيما تأثير الشياطين، ومن ثم لها دور سبي في الفعل والتفاعل الاجتماعي، وما يؤدي إليه من ظواهر اجتماعية. ثم من وراء هذا التفاعل الذي يجري، والتداخل السبي بين مكونات عالم الشهادة وعالم الغيب هناك الله تعالى، عالم الغيب والشهادة، المصدق والمهيمن على هذا التفاعل، إحاطة مباشرة ومن خلال سنن الاجتماع الإنساني الواردة في القرآن الكريم، التي فصلناها في مواضع شتى من بحوثنا المنشورة، فليس من شيء يحدث في هذه الفضاءات إلا بعلمه، أو إذنه، أو أمره، أو فعله، فهو سبحانه وتعالى خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد)؛ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات).

هكذا ينبثق الإنسان في كليته من تفاعل فطرته التي فطر عليها في أحسن تقويم مع بيئته الخارجية ليبدأ التفاعل والتأثير والتأثر بين هذه الفطرة وبين فضاء ابتلائها في زينة الحياة الدنيا، ويمضي كل إنسان في التشكّل بحسب ظروف البيئة التي ينشأ فيها، وابتلاءات الحياة وتصاريقها اللحظية التي يتقلّب فيها، وفعله وتفاعله معها، فكل إنسان في كليته هو في حقيقة الأمر ابن لحظته، أي يجسّمه موقفه مما يجابهه في الحياة في كل لحظة وحين. وعلى الجملة، وبمعايير رؤية القرآن للعالم، هناك من هو في الصالحين، وهناك من يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهناك من هو أسفل سافلين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۚ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين). وفي كل هذه التصرفات

تظل النفس، بفجورها وتقواها، هي جوهر الإنسان، لكن الإنسان في كليته هو نظام له خواص منبثقة لا توجد في أي من مكوناته (النفس، الجسم)، فهو يتكلم بلسانه، وهو يمشي برجليه، وهو يبطش بيديه، وهو يبكي، وهو يضحك، وهو عجول، وهو هلو... إلخ. كذلك للإنسان في كليته خواص اكتسبها من مكوناته الجسمية والروحية، فهو يجوع ويشبع، ويظمأ ويروى، ويعرى ويضحي، ويعنت، ويمرض ويصح، ويتألم، ويتفكر ويتدبر، ويخشى ويطغى، ويعدل ويظلم، ويرحم ويقسو، ويشكر ويكفر، ويغضب ويرضى... إلخ. ومن تأثيرات بيئته الخارجية قد تتعزز فيه صفاته الروحية الربانية، أو صفاته الحيوانية، الشهوانية والغضبية.

هذا الإنسان في كليته هو نظام يتمتع بثلاثة نظم من الخواص السببية المعنوية، هي: الخواص العقلية؛ الخواص الوجدانية والخواص الإرادية، ويقابل كلا منها ما يناسبها من الخواص البدنية، بحيث يؤدي تفاعلها فيما بينها إلى أن يتمتع الإنسان بقوة الوعي (Consciousness)، وقوة الإرادة (Agency). هكذا يصبح الإنسان فاعلا، ومتفاعلا مع بيئته الخارجية، ومستعدا لاستقبال الوحي من السماء، ومن ثم القيام بواجب الاستخلاف إن شاء: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢﴾ (الجمعة). فالآيات المتلوة في هذه الآية هي القرآن الكريم، وهو علم الله تعالى الوجودي الذي يخاطب الخواص العقلية الإدراكية في الإنسان ليعلم أنه لا إله إلا الله، والتزكية المترتبة على هذا العلم المتلو المقصود منها التحقق بالإيمان بشعابه المختلفة، والمستهدف بها هي الخواص الوجدانية في الإنسان، وأما تعليم الكتاب والحكمة، بعد العلم والإيمان، فالمقصود به هو فقه العمل الصالح ومهاراته: (صلوا كما رأيتموني أصلي؛ فارجع قَصَلْ فإنك لم تصل؛ خذوا عني مناسككم... إلخ)، والمستهدف به هو الخواص الإرادية في الإنسان حيث إيقاع العمل على وجهه الصحيح، من حيث الفقه ومن حيث الإتيان في البيئة الخارجية.

2.4- الإنسان كنظام

يقتضي البحث الذي تحتويه هذه الورقة التعرف بإيجاز على النظم الاجتماعية المستنبطة من رؤية القرآن للعالم من أربع زوايا يقتضيها المنهج النظمي، وهي: مكونات النظام؛ بيئة النظام؛ بنية النظام؛ كفاءات عمل (مكثرات) النظام. ننطلق من هذه التقسيمات المنهجية للنظم لتتعرف من خلالها على الإنسان، الذي شخّصناه أعلاه، كنظام يؤدي فعله وتفاعله الاجتماعي إلى النظم الاجتماعية الكلية المختلفة التي ابتدنا بها هذه الورقة.

1.2.4- مكونات نظام الإنسان

يتكوّن الإنسان كنظام من مكونين أساسيين كما أسلفنا، هما "النفس" و"الجسم"، بينما "الروح" صارت، بحسب مفهوم "الانثاق"، مكونا من مكونات النفس، لذلك لم يعد لها وجود مستقل في نظام الإنسان. وربما لهذا السبب لا يوجد ذكر للروح في القرآن الكريم ككائن فاعل مستقل في الإنسان، بل الحديث كله عن النفس، وقد يرفع هذا التحليل الإشكال والخلط الذي وقع فيه علماء السلف في حديثهم عن الروح والنفس، والفرق بينهما، وقد أشار إلى ذلك الإمام ابن القيم فيما نقلناه عنه أعلاه.

2.2.4- بيئة نظام الإنسان

الإنسان كنظام تتسع بيئته التي يتفاعل معها لكل فضاء الاجتماع الإنساني بمكوناته المختلفة مما ذكرت سابقا في هذا البحث، فمن عالم الشهادة هناك بيئة زينة الحياة الدنيا، بشقيها الاجتماعي والمادي، وهناك الوحي هداية للإنسان، وهناك الأرض والسماء، ومن عالم الغيب هناك الشيطان عدو الإنسان، وهناك الجن والملائكة. وفوق كل ذلك يوجد الله الخالق، عالم الغيب والشهادة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ٦١﴾ (يونس).

3.2.4- بنية نظام الإنسان

نعرف بنية النظام بأنها مجموع العلاقات التي بين مكوناته، مضافا إليها تلك التي بين هذه المكونات وبين عناصر بيئتها الخارجية، وتسمى الأولى بالبنية الداخلية للنظام، وتسمى الأخرى بالبنية الخارجية للنظام. ينبغي التمييز بين نوعين من العلاقات، تلك "الرابطات" لمكوناته، و"غير الرابطات"، فالأولى هي روابط يحدث وجودها، أو عدمه فرقا لمكونات النظام، بينما الأخرى ليست كذلك. فقط العلاقات الروابط تسهم في إمساك مكونات النظام مع بعضها، لذلك تعتبر جزءا من بنيته.

1.3.2.4- البنية الداخلية

تتكون البنية الداخلية لنظام الإنسان من ثلاثة أنواع من الروابط تربط بين النفس والجسد، أولاها روابط حسية تتمثل في علاقات الحس من سمع، وبصر، ولمس، وشم، وذوق، وبطش بالأيدي، ومشى بالأرجل. فهذه القوى هي ضرورية للنفس

حتى تتمكن من التعرف على البيئة الخارجية التي لا بد منها للإنسان لأنها، أولاً؛ مصدر ضروراته الحيوية، ثم، ثانياً؛ مجال ابتلائه الذي من أجله خلق، ولكن الأدوات التي تجعل ذلك ممكناً هي أعضاء في الجسد، ومن هنا يأتي الربط البنيوي.

النوع الثاني من الروابط الداخلية هي روابط نفسية تتمثل في روابط اللذات والأفراح، والآلام والغمووم التي تأتي إلى النفس من قبل الجسد عند تفاعله مع البيئة الخارجية، وهي روابط ضرورية تضمن للجسد سعى النفس في تحصيل مصالحه الحيوية، ودفع المفاسد عنه، فكأنها حوافز موجبة وسالبة يقدمها الجسد لتكون النفس في خدمته. وكل ذلك ضمان لدخول جميع الناس في ابتلاء زينة الحياة الدنيا حيث مضمار السباق، ودليل على عظيم تدبير الخالق سبحانه وتعالى.

النوع الثالث من الروابط الداخلية، وهي الأهم ويختص بها الإنسان دون غيره من خلق الله هي الروابط الروحية، أو القيمة المتعلقة بالخواص السببية الإلهية التي اكتسبتها النفس من الروح، مثل العلم، الإيمان، الرحمة، العدل، الإحسان... إلخ، وكذلك نقيضها مثل الجهل، الكفر، القسوة، الظلم، البخل، الكبر، الهلع... إلخ، وهذه الأخيرة هي خواص نفسية منبثقة لا مكتسبة. نحن نتعامل هنا مع الحظ النسبي للإنسان من هذه الصفات الإلهية باعتبارها مكونات لنظام كلي هو الروح، وهو نظام يختص به الإنسان وحده، وتصبح هذه الصفات ملهمات للتقوى فقط في إطار هذا النظام، فإذا انهدم النظام الروحي كلياً، أو جزئياً في نفس أي إنسان انفرط النسيج الرابط بين هذه الصفات وفقدت كل، أو بعض فاعليتها السببية. هذه الخواص السببية الإلهية هي إمكانات موجودة بالقوة في النفس، ومفتوحة على ما يناسبها من الخزائن الإلهية، والإنسان بإرادته يفعلها، ويوظفها إن شاء في مهمته الاستخلافة الأرضية، وهي معنية أساساً بابتلاء الإنسان في زينة الحياة الدنيا، من حيث شكره، أو كفره، ومن ثم تحقيق مغزى خلق الإنسان لعبادة الله تعالى.

الخواص السببية، موجبها وسالبها، تحكم تفاعل النفس، ومن ثم الإنسان، مع البيئة الخارجية، ولكن النفس تحتاج غالباً إلى قوى الجسد للتعبير عن تدافع هذه القوى المعنوية فيها، ولتوظيفها في سعيها الدنيوي، فمثلاً اكتساب العلم من مظانها، قبل توظيفه، تحتاج النفس فيه إلى قوى السمع والبصر والفؤاد، وهي قوى سببية موجبة تتبع لمنظومة الصفات الإلهية، وهذه بدورها تحتاج إلى قوى جسدية كالأذن، والعين، والدماغ والقلب. فإن كان العلم الذي تم اكتسابه يقتصر على ظاهر من الحياة الدنيا فإن توظيفه في الحياة تحتاج النفس فيه إلى قوى جسدية كالأيدي للبطش، والأرجل للمشي، والأنف للشم، واللسان للذوق والكلام... إلخ. وإن كان العلم يراد به الدار الآخرة فتحتاج النفس أيضاً في توظيفه لهذا الغرض، إضافة إلى ما سبق، إلى القوى الجسدية التي تمكن من التدبر في وحي الله، والتفكير في خلق السماوات والأرض، وتحويل ذلك إلى إيمان يستقر في القلب، وعمل صالح يستقر في الأرض مما يحتاج إلى توظيف كل أعضاء الجسد البشري.

2.3.2.4- البنية الخارجية

يقابل الثلاثة أنواع من الروابط الداخلية المذكورة أعلاه ثلاثة أنواع من الروابط الخارجية التي تربط الإنسان بمجال ابتلائه في عالم الشهادة (المال، البنون)، الأول؛ روابط مادية حيوية ضرورية تتعلق بحاجات الجسد من مأكل، ومشرب، وملبس، ومسكن، ومنكح. النوع الثاني من الروابط؛ هي روابط الحب الشهواني بين النفس وبين متاع زينة الحياة الدنيا: ﴿رَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ١٤﴾ (آل عمران). النوع الثالث من الروابط؛ هي روابط معرفية، علمية ضرورية تربط النفس بالبيئة الخارجية الأرضية من حيث ضرورة التعرف على مفردات تلك البيئة الأرضية وعلاقتها النفعية بالإنسان، حتى يستطيع المشي في مناكبها، وتحصيل حظوظه من متاعها.

النفس لها علاقة رابطة بالوحي من حيث مدها بالرؤية الكلية للوجود، وإعلامها بحقيقة نفسها ودورها فيه، وطبيعة الاستخلاف القائم على الابتلاء في زينة الحياة الدنيا، ورؤية العالم التوحيدية ورؤية العالم الدنيوية المهيمنتان على هذا الابتلاء، ومآلات هذا الابتلاء في الدنيا والآخرة، وواجب النفس في القيام بالاختيار الراشد المؤسس على الرؤية التوحيدية، وتفصيل ما ينبغي وما لا ينبغي على النفس فعله في هذه الحياة الدنيا إن هي آمنت بربها، وصدقت بكتبه ورسله. هكذا يقوم الوحي بتذكير النفس بملهمات التقوى التي فيها: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ٢١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ٢٢﴾ (الغاشية)، ويخرج النظام الروحي من حالة الكمون والخمول إلى حالة النشاط والفعل والتأثير لبدء التدافع مع ملهمات الفجور التي سبقت بأمد بعيد إلى النفس بمقتضى الفطرة البشرية قبل أن يبلغ الطفل الحلم، إذ تتفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا منذ ولادة الطفل بمقتضى الضرورات الحيوية والشهوات النفسية، ويمدها بأسباب من عنده الشيطان الحاضر على الدوام منذ عطسة الطفل الأولى. هذا التفاعل بين النفس ووحى الله قد يكون مباشراً من خلال وسائط النشر المختلفة، وقد يكون غير مباشر عن طريق العلماء والدعاة، وفي كليهما التكليف قائم والاستجابة مطلوبة. ومن أعرض عن ذكر الله تعالى تظل كثير من الخواص الإلهية السببية فاعلة في نفسه، وإن كانت نفساً فاجرة، كالعلم بظاهر من الحياة الدنيا، والسمع، والبصر، والعدل، والرحمة... إلخ، فضلاً عن الله ونعمة، إذ لا تستقيم حياة البشر على الأرض في حدها الأدنى إلا بها.

الروابط البنيوية الخارجية أعلاه تربط الإنسان كنظام بعالم الشهادة حيث الاستخلاف الابتلائي، ولكن الروابط البنيوية الخارجية الأهم هي تلك التي تربطه بعالم الغيب، فهناك الغيب المطلق وهو الله تعالى، وهناك الغيب المقيد وهو الشيطان. هذه الروابط البنيوية هي ذاتها التي تأسست عليها علاقة الإنسان الأولى ببيئته الخارجية عند خلق آدم وزوجه، عليهما السلام، ودخولهما الجنة، ثم خروجهما منها، وهبوطهما والشيطان إلى الأرض.

الروابط البنيوية بين النفس والشيطان هي روابط ضرورية خفية، صدق بها من صدق وكذب بها من كذب؛ عليمها من عليم وجهلها من جهل، والتكذيب والجهل بها لا يبطل أثرها. وهي علاقة عداوة مستحكمة بين الإنسان والشيطان منذ الخلق الأول للإنسان، سُلط فيها الأخير على الأول في أصل فتنته في هذه الحياة الدنيا، وهو حب الشهوات المودعة في زينة الحياة الدنيا، فهو لا ينفك يزين له هواه فيها، ويثير ملهفات الفجور في نفسه حتى يضله إن استطاع، وقد استطاع إلا قليلا: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَحْرَمْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَبِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ٦٣ وَأَسْتَفْزِرُّ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ (الإسراء). والهدف النهائي للشيطان من هذه العلاقة أن يؤثر الإنسان الحياة الدنيا حتى يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٧﴾ (المؤمنون)، وهي الرؤية الدنيوية المقابلة للرؤية التوحيدية، وقد بين الوحي حقيقتيهما للنفس في تبيانها للرؤية الوجودية الكلية.

ترتبط النفس البشرية بالله تعالى الذي خلقها بنوعين من الروابط الضرورية المعلومة للباحث من القرآن الكريم، روابط سننية كلية في إطار فعل وتفاعل الإنسان مع البيئة الخارجية، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٢٥﴾ (الأنفال). والرابط الثاني هو رابط مباشر يربط كل عبد بخالقه، حتى وإن جهل، أو أنكر العبد هذا الرابط وظن بطغيانه أنه مستغن عن الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ٦﴾ (العلق). وهذا الرابط هو الرابط المصدق والمهيمن على جميع الروابط الأخرى للإنسان، لأنه يقوم على علاقة خالق ومخلوق؛ رب ومربوب؛ عابد ومعبود... إلخ، فمن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا، ومن نهى عن القرآن ونأى عنه أهلك نفسه وهو لا يشعر، ومن جعل علاقته بالمال والولد مُقَدِّمة على علاقته بالله مكر الله به في ماله وولده فلم يزد ماله وولده إلا خسارا، فقد قضى الله تعالى ألا يعبد إلا إياه، وأن من أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكا، ويحشره يوم القيامة أعمى، وأن من اتخذ إلهه هواه أضله الله على علم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَفَلَهُ عَلَى بَصَرِهِ عَشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ (الجاثية).

4.2.4- كفاءات عمل نظام الإنسان

لقد وصفنا نظام الإنسان، في إطار المنهج النظامي، في مكوناته وبيئته ونسيجه، وتبقى أن نبين كيف يعمل هذا النظام ليحقق القصد منه، وهذا القصد قد حدده قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٢﴾ (الملك)؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ٧﴾ (هود). وهذا المقصد من خلق الموت والحياة، وخلق السماوات والأرض، والبعث من بعد الموت هو ابتلاء محله زينة الحياة الدنيا (المال، البنون): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٧﴾ (الكهف)؛ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ٤٦﴾ (الكهف). والمطلوب من الناس استباق الخيرات في هذا الامتحان للفوز بالدرجات العلا في الدار الآخرة: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٤٨﴾ (البقرة)؛ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ٢٥ خِتَمُهُ مِسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ٢٦﴾ (المطففين). ومقصد أيكم أحسن عملا، أو استباق الخيرات والتنافس عليها في زينة الحياة الدنيا عملا صالحا، وحياة طيبة يقتضي من الإنسان الاجتهاد في توكي الوسائل أيهم أقرب إلى تحقيق تلك المقاصد الحياتية، ومن ثم الفوز بالدرجات العلا في الحياة الآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣٥﴾ (المائدة)؛ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٥٧﴾ (الإسراء). وهذه الوسائل المبتغاة هي أحسن "كفاءات العمل"، و"مسارات الفعل" الاجتماعية التي تربط الأسباب بمسبباتها، وتؤدي غالبا إلى تحقيق النتائج المبتغاة في إطار نظام اجتماعي محدد، وهي ما يطلق عليه في علم النظم الغربي والطريقة النظامية كمنهج لدراسة هذه النظم، سواء كانت طبيعية أم اجتماعية، بالمكثزيمات (mechanisms). إذن نحن نريد أن نقف على طبيعة "كفاءات العمل" التي وضعها الله تعالى في نظام الإنسان بحيث يعمل هذا النظام بأعلى درجات الكفاءة محققا مغزى خلق الإنسان، وضامنا لدخول جميع الناس في ابتلاء زينة الحياة الدنيا.

كيفية العمل الضرورية للنظام هي "البقاء"، وتبدأ من حاجة الجسم إلى الوفاء بضروراته الحيوية من الغذاء؛ الكساء؛ الماء والغطاء حتى لا يهلك: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ١١٩﴾ (طه)، ومن الجَماع حتى لا ينقرض النوع البشري. وهذه الضرورات الحيوية لا يمكن الوفاء بها إلا من مكونات زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، لذلك عندما يفتقر الجسم إلى ضرورياته الحيوية تُطَلَق عمليات فيزيائية وكيميائية وحيوية داخل الجسم تعبر عن حاجته إلى الوفاء بالضرورة المعينة، سواء كانت مأكلاً، مشرباً، ملبساً، مسكناً، أو جماعاً. يقوم الجسم من جانبه بجعل النفس تحس بأهمية الوفاء بهذه الضرورة من خلال عمليات "التشويش" الحيوية على قوى النفس الأساسية التي تحتاج في توظيفها إلى الجسم، مثل قوى السمع، البصر، التفكير... إلخ حيث تضعف هذه القوى، بحسب مستوى حدة الضرورة الحيوية، إلى أن تتوقف تماماً عن العمل. تلجأ النفس، للوصول إلى الوفاء بضرورات الجسم، إلى إطلاق عمليات نفسية تضطر الإنسان في كليته إلى الإسراع في الوفاء بتلك الضرورات، مثل عملية "الجوع"، عملية "العُري"، عملية "الظلم"، عملية "الإضحاء"، وعملية "العنت" الجنسي. كيفية العمل النفسية هذه بالغة الفعالية، إذ تُحدث كل منها ألماً معيناً يناسب نوع الضرورة الحيوية الواجب الوفاء بها حتى إن الإنسان ليعجز عن احتمالها، ومن ثم يُطلق من جانبه كيفية العمل الأعظم، ألا وهي "الفعل الاجتماعي" الجالب لما هو مطلوب من ضرورات الجسم. هذا الفعل الاجتماعي هو الذي يضمن تفاعل الإنسان مع بيئته الخارجية، وهو المراد من عمل كل هذه الكيفيات الفيزيائية والكيميائية والحيوية والنفسية.

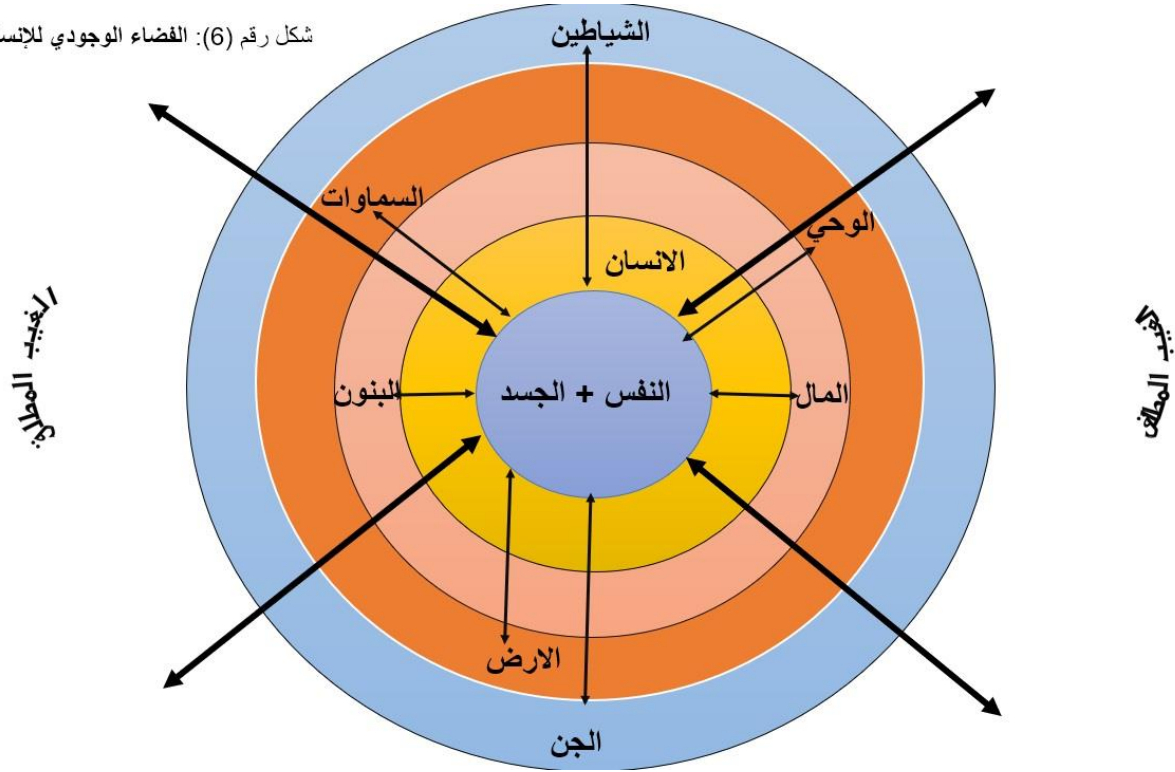
الجسم عندما يستوفي حاجاته الضرورية من خلال عمل الكيفيات الصاعدة منه ومن النفس إلى البيئة الخارجية تبدأ كيفيات عمل معاكسة، جسدية ونفسية، في العمل حتى يتوقف الجسم عن تناول المزيد من مصادر تلك الضرورات الحيوية، فتنتقل عمليات فيزيائية وكيميائية وحيوية تناسب هذه الحال، وبدوره ينقل الجسم هذه المعلومات إلى النفس حتى تقوم هي بدورها في إطلاق العمليات المناسبة المنذرة للإنسان بالتوقف عن الفعل الذي كان. لكن النفس عند هذه المرحلة تكون قد ذاقَت لذَّة الشهوات الكامنة في زينة الحياة الدنيا التي سعى إليها الإنسان ابتداء للوفاء بضرورات الجسم الحيوية، ويبدأ نوع جديد من الطلب على "المال" و"البنين" مركَّب فوق طلب الضرورات الحيوية، ويتأسس على إشباع شهوات النفس من متاع زينة الحياة الدنيا. أهم كيفيات العمل لهذا النوع من الطلب تلك المتعلقة بحب الشهوات، وجمعها مفهوم "الهوى" الفطري في النفس البشرية.

الفعل الاجتماعي الابتدائي الذي يبتدريه الإنسان للوفاء بضرورات الجسم الحيوية يصله بجميع مكونات بيئته الخارجية: المال، البنون، الأرض، السماء، الوحي، الشيطان، ومن وراء ذلك يصله بالله الذي خلقه، صلة مباشرة ومن خلال السنن الاجتماعية. هكذا يدخل الإنسان في أتون الابتلاء قهراً لا اختياراً، ليحقق من بعد ذلك باختياره مسارات حياته فيه، ومآلاتها في الدنيا: حياة طيبة، أو معيشة ضنكا؛ ومآلاتها في الآخرة: فريق في الجنة وفريق في السعير. هذه المرحلة تشهد أيضاً، بسبب تفاعل الإنسان مع مكونات بيئته الخارجية ومع البنية الرابطة بين هذه المكونات، تأطير الفعل الاجتماعي برؤية العالم التي يستتبطنها الإنسان ونظمها المعيارية والقيمية، وكذلك تكتسب النفس قوى علاقاتية جديدة تناسب حالها في الابتلاء وفي علاقتها بمكونات بيئتها الخارجية، منها ما هو من ملهفات التقوى، ومنها ما هو من ملهفات الفجور، وتنبثق فيها أحوال تعبر عن طبيعة ومستوى تلك العلاقات، فالمؤمن بالله تعالى تنبثق في نفسه أحوال الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، والخشية والإنابة، وعلى الجملة يمكن أن نعبر عن هذه الأحوال بأنها ثمرات ملهفات التقوى المنسوبة إلى الصفات الإلهية الفاعلة والمتفاعلة في نفس المؤمن. ولكن بسبب علاقة المؤمن بزينة الحياة الدنيا وبالشيطان تنبثق أيضاً في نفسه أحوال تناسب هذه العلاقة، مثل الغضب، الكبر، الطمع، الحسد... إلخ، ويمكن إجمال هذه الأحوال بأنها تعبر عن مدى فاعلية ملهفات الفجور في نفس المؤمن. يتدافع هذان النوعان من القوى العلاقاتية في نفس المؤمن، ويحكم هذا التدافع تجربته الابتلائية، أما غير المؤمن فتهيمن "ملهفات الفجور" على نفسه في علاقته بمكونات بيئته الخارجية، وفي علاقته بربه، وتعتبر أحواله النفسية عن ذلك في مجمل حياته.

هذه المرحلة التي يتفاعل فيها الإنسان مع مكونات بيئته الخارجية تشهد عمليات التدافع الاجتماعي من خلال الفعل والتفاعل الاجتماعي مما يؤدي إلى نشأة المجتمعات بنظمها الاجتماعية، والمعرفية، والاتصالية، والثقافية المختلفة، المتحيزة في الزمان والمكان، وانطلاق كيفيات عمل (مكّنزمات) الابتلاء التي تعمل من خلال هذه النظم، إما بالمحافظة عليها، أو بتغييرها، أو بتدميرها، ولله عاقبة الأمور. الشكل رقم (6) أدناه يجسّد انبثاق الإنسان كنظام معقّد من خلال تفاعل مكوناته المتمثلة في النفس والجسم مع بيئة عالم الشهادة (المال، البنون، الوحي، الأرض، السماوات)، ثم مع بيئة عالم الغيب (الشياطين، الجن، الملائكة)، ثم من وراء ذلك الله تعالى، عالم الغيب والشهادة.

شكل رقم (6) نموذج نظام الإنسان

شكل رقم (6): الفضاء الوجودي للإنسان



3.4- مدخل إلى النظم الاجتماعية الكلية من خلال المنهج النظمي

البحث الأول الذي اشتملت عليه الورقة الأولى من هذا المشروع البحثي يتنا فيه أصول النظم الاجتماعية في رؤية القرآن للعالم، وقد قمنا بإعادة إنتاجه في الشكل رقم (1) بهذا البحث، ومنه استخلصنا النظام الاجتماعي العام في الشكل رقم (2)، وكذلك النظام الاجتماعي الدنيوي في الشكل رقم (3)، ثم النظام الاجتماعي التوحيدي في الشكل رقم (4)، وأخيراً نظام الواقع الاجتماعي في الشكل رقم (5). نود في نهاية هذا البحث أن نسقط المنهج النظمي الذي شرحته الورقة الثانية في هذا المشروع البحثي على هذه النظم الاجتماعية المثالية (Ideal Type)، بالمعنى "الفيري" للمثالية، لتتعرف بإيجاز عليها من خلال: مكوناتها؛ بيئتها؛ نسيجها؛ كفاءات عملها (المكنزمات)، مبتدئين بالنظام الاجتماعي العام في الشكل رقم (2). الفائدة الحقيقية من هذا التمرين النظري هي فائدة منهجية، إذ تصبح هذه النظم الكلية هي الضابط لأي تنظير يتعلق بنظم جزئية تنشأ من داخلها، ابتداء من النظام النفسي للإنسان، مروراً بالفعل والتفاعل الاجتماعي، والنظم الاجتماعية الجزئية الوسيطة التي يؤدي إليها، سواء كانت مؤسسات كالأسرة، أو منظمات كالمدرسة والشركة، وانتهاء بالنظم الجزئية الأعم كالنظام التربوي، النظام الاقتصادي، النظام الثقافي، النظام السياسي... إلخ. التنظير للنظام الاقتصادي التوحيدي، مثلاً، لا ينبغي أن يناقض أي معطى من معطياته تلك التي ثبتت للنظام الاجتماعي التوحيدي الكلي، لأن الأول جزء من الثاني. الفائدة المنهجية الثانية، وهي التي قصدها ماكس فيبر، هي أن البناء والتحليل النظري لهذه النظم الاجتماعية الكلية، لأنها نظم مستوحاة من رؤية القرآن للعالم، والقرآن هو المعادل المعرفي الحق للوجود، يعطينا فهماً حقيقياً لكيفية عمل النظم الاجتماعية في الواقع، والمتغيرات الأساسية الفاعلة والمتفاعلة في هذه النظم.

1.3.4- النظام الاجتماعي الفطري العام

النظام الاجتماعي الفطري العام هو نظام افتراضي كما أسلفنا عند تعريفنا له في الشكل رقم (2) أعلاه، والغرض من التحليل هو أن نقف على كيفية عمل النظام لتحقيق وظائفه المفترضة، ولمعرفة اتجاهات التغيير فيه، وأهم العمليات الفاعلة في النظام مفترضين عدم نزول الوحي الإلهي من السماء لهداية الناس، مما يتبين معه ضرورة إرسال الرسل، ونزول الوحي بالهدى. الوظيفة الأساسية لهذا النظام، في غياب هداية الوحي، هي تمكين الناس الذين يكونونه من إشباع حاجاتهم الحيوية، والاجتماعية، والروحية. وهذه الأخيرة ناجمة عن وجود الصفات الإلهية في نسبتها الإنسانية في النفس، فطرة تربط الإنسان بعالم الغيب، وتدعوه إلى الوفاء بحقها في نفسه، وفي بيئته الداخلية والخارجية، أيا كان الغيب الذي يؤمن به ويأوي إلى أمانه.

1.1.3.4- مكونات النظام

يتكون النظام من الناس، الذين تعرفنا على خواصهم الفطرية في نظام الإنسان أعلاه، ومما عملته أيديهم في موارد الطبيعة، ونفترض أنهم جميعا مولودون على الفطرة، أي لا مؤمنين ولا كافرين: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل)، ولكن لديهم إمكان أي من الخيارين، كما نفترض عدم نزول أي وحي من السماء للتأثير على خياراتهم الحياتية. هذا يعني اقتصار علمهم على مكونات بيئة عالم الشهادة فقط رغم وجود عالم الغيب وتأثيره عليهم.

2.1.3.4- بيئة النظام

تتكون بيئة النظام من بيئتين، بيئة من عالم الشهادة تتمثل في الأرض والسماء، وبيئة من عالم الغيب تتمثل في الشياطين خاصة، والجن عموما، والملائكة، ثم الله تعالى من ورائهم محيط. الشكل رقم (6) أعلاه يجسد هذا البناء الوجودي في عالم الإنسان، علما بأن "المال" و"البنون" أصبحا في صلب تركيبة النظام الاجتماعي بعد أن كانا جزءا من مكونات بيئة عالم الشهادة في نظام الإنسان الذي سبق هذا النظام، وتعرفنا عليه أعلاه. لذلك اقتضت بيئة عالم الشهادة على مكونين فقط لهذا النظام الاجتماعي هما الأرض والسماء، وتحول متغيرا "المال" و"البنون" إلى نظم اجتماعية جزئية بما عملته يد الإنسان فيهما - الفعل والتفاعل الاجتماعي- كالنظام التربوي، الاقتصادي، الاجتماعي، السياسي، والثقافي.

3.1.3.4- نسيج النظام

يتكون نسيج النظام (بنيته) من جملة العلاقات الداخلية التي تربط مكونات النظام مع بعضها، وكذلك جملة الروابط الخارجية التي تربط مكونات النظام مع مكونات بيئته الخارجية. الروابط الداخلية بين الأفراد المكونين للنظام تحددها طبيعة العلاقة الاجتماعية التي توطر وتحدد نوع الروابط في إطار الفعل والتفاعل الاجتماعي مع زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، ففي إطار متغير "البنين" المعبر عن العلاقات البيولوجية بين الرجال والنساء، وما يترتب عليها من علاقات رحمة هناك الروابط العاطفية من مودة ورحمة بين المرء وزوجه مثلا، وكذلك علاقات حب وكرهية تتسم بها العلاقات الرحمية... إلخ. النسيج الذي يربط مكونات النظام مع متغير "المال" المعبر عن علاقات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك هناك روابط الفعل الاجتماعي مثل المشاركة والتعاون والتشاور، التنافس والصراع، التبادل والإعلام، التراضي والإكراه، الخضوع والثورة... إلخ. وهناك الروابط العقدية التي تربط بين أصحاب المعتقد الواحد، وهناك الروابط المعيارية (أخلاقية، قانونية) تضبط العلاقات بين الناس. روابط الفعل الاجتماعي هي روابط من حيث إنها تجمع بين شخصين، أو أكثر، في إطار النظم الاجتماعية الجزئية الضرورية التي تحتتمها طبيعة التفاعل بين العناصر الكونية المنتجة للاجتماع الإنساني، كما بينا ذلك في رؤية القرآن للعالم، وهذه العناصر هي: النفس (الإنسان)؛ المال؛ البنون؛ العلم؛ الهوى. هذه الروابط بطبيعتها ديناميكية تؤدي إلى إحداث تغيير في الذين تربطهم، وفي البنية الاجتماعية التي توطرهم.

الروابط الخارجية هي روابط بين الناس المكونين لهذا النظام الاجتماعي الفطري من جهة وبين مكونات بيئة عالم الشهادة، وبيئة عالم الغيب، ثم الله تعالى من جهة أخرى. الروابط الفاعلة في بيئة عالم الشهادة هي روابط بين الناس وبين موارد الأرض الطبيعية، وهي علاقة نفعية يتم فيها توظيف العلم بظواهر من الحياة الدنيا الذي يكتسبه المجتمع من خلال الفعل والتفاعل بين أفرادها، وبينهم وبين بيئتهم الخارجية، لإشباع حاجاتهم الفطرية. والعلم بظواهر من الحياة الدنيا يظل دوره وظيفيا فقط، وخاضع لإله الهوى مهما تطور وعي المجتمع ليأخذ بعدا عقليا في علاقاته الاجتماعية.

الروابط الأخرى مع البيئة الخارجية، في غياب الوحي افتراضا، تحتل كل أنواع الاعتقاد، وهي أساسا علاقة خضوع لقوى غيبية يُعتقد وجودها، تتسم بالخوف والرجاء، فقد تكون القوة الغيبية هي الإله الواحد، وقد تكون الجن، وقد تكون الشمس والقمر، وقد تكون النار، وقد تكون أساطير الأولين. ذلك أن الضعف الذي يلزم الإنسان فطرة يلجئه إلى البحث عن ظهير

تتجسد فيه القوة التي يفتقدها، وغالبا ما تكون هذه القوة غيبية يمنحها خيال الإنسان كل ما يريده من صفات الكمال التي يفتقدها.

4.1.3.4- كفاءات عمل النظام

لقد ذكرنا في القسم السابق المتعلق بنظام الإنسان العمليات التي تنقل الإنسان إلى قلب الابتلاء في زينة الحياة الدنيا، وهي كفاءات عمل فيزيائية، كيميائية، حيوية ونفسية تتم داخل جسم الإنسان، أما في النظام الاجتماعي فهي كفاءات عمل اجتماعية وروحية من خلال عمليات الفعل والتفاعل الاجتماعي، في إطار النسيج الاجتماعي الداخلي والخارجي. لنذكر أن كفاءات العمل (المكنزمات) مقصود بها العمليات الجوهرية، أو مسارات الفعل التي تتم داخل النظام وتجعله يعمل بالطريقة التي تمكنه من أداء وظيفته، وهي التي تعطي النظام هويته، فعمليات التدريس هي التي تعطي المدرسة هويتها، وعمليات التطبيب هي التي تعطي المستشفى هويته، وعمليات البحث العلمي هي التي تعطي مراكز البحث العلمي هويتها...إلخ. وهذه الكفاءات في العادة لا ترى بل يقوم الباحث، كما يفعل في إنتاج الفرضيات العلمية، من خلال الخيال المبدع، محفزا ومقيدا بالبيانات المتوفرة له عن الموضوع سواء كان مصدرها الوحي، أو الواقع، بتقديم نظريات تتعلق بكفاءات العمل موضوع البحث، ويمكن اختبار هذه النظريات تجريبيا فتأكد، أو تدحض.

نوعان من كفاءات العمل الابتدائية التي تنجم عن تفاعل الإنسان مع متغير (البنين) في زينة الحياة الدنيا، النوع الأول يتمثل في كفاءات عمل "حب الشهوات"، لا سيما شهوة "الجنس" وشهوة "البنوة"، التي تؤدي إلى إقامة المؤسسات الرحمية كالأُسرة، والرهط والقبيلة...إلخ. النوع الثاني من كفاءات العمل يمكن تسميتها بالكفاءات العاطفية، مثل "المودة" و"الرحمة"، التي تعمل على استدامة العلاقة الزوجية بين الزوجين، و"الغيرة" التي منها المحمود ومنها المذموم. إن افتراض عدم وجود وحي الهداية من السماء يجعل كفاءات العمل هذه، لا سيما حب الشهوات، تحدث أنواعا شتى من التغيير الاجتماعي أساسه التكاثر في الأموال والأولاد، مما ينتج عنه كفاءات عمل أخرى مثل "الإثم" و"العدوان"، وهي كفاءات الصراع الاجتماعي التي تؤدي إلى نقض عرى المجتمع. والمطلوب من البحث العلمي النظمي دراسة كيف تنشأ كفاءات العمل من هذا النوع داخل النظم الاجتماعية، وكيف تعمل بما يؤدي إلى تفسير عميق للظواهر الاجتماعية المعبرة عن التغيير الاجتماعي الذي تحدثه في مكونات ونسيج وبيئة المجتمع محل الدراسة.

كفاءات عمل "حب الشهوات" في مجال (المال) تؤدي إلى التكاثر في الإنتاج، والاستهلاك، ومن ثم قيام نظم الملكية المختلفة لعناصر الإنتاج ولوسائله ولعلاقاته، ونظم التبادل السلعي كالأسواق، ونظم الاستهلاك الفردي والجمعي في القطاع الاستهلاكي. كل هذه النظم لها كفاءات عملها، وهي، في غياب الوحي، يغلب أن تكون كفاءات "الصراع"، "التنافس"، "الطغيان"، أو بلغة القرآن الكريم كفاءات "التعاون على الإثم والعدوان" و"العلو في الأرض"، وهي في جملتها عمليات اجتماعية تؤدي إلى التمايز الطبقي الذي يؤدي بدوره إلى كفاءات عمل جديدة تنتهي بهدم المجتمع. طبعا لا يمنع هذا أن تكون هناك كفاءات عمل حافظة للمجتمع تعمل في الاتجاه المعاكس في ذات الوقت مثل كفاءات "التعاون"، "المشاركة"، "الصلح"...إلخ، مما يقلل من أثر الكفاءات الهادمة له، لكنها كفاءات لا تصمد أمام الأثر الاجتماعي المدمر لكفاءات العمل الجوهرية المحددة لهوية هذا النوع من النظم، وهي كما بيّنا كفاءات "حب الشهوات"، و"التكاثر" في الأموال والأولاد.

كفاءات العمل الداخلية أعلاه تتداخل معها، سلبا وإيجابا، كفاءات عمل خارجية تنتج من تفاعل النظام الاجتماعي الفطري العام مع مكونات بيئته الخارجية، ومع الخالق المتعالي سبحانه، وهو تداخل يحدد الحال (State) التي عليها النظام الاجتماعي في لحظة زمانية ومكانية محددة. الكائن الخارجي الأكثر تأثيرا في علاقته بالإنسان، في غياب الوحي افتراضا، هو الشيطان، عدو الإنسان منذ الخلق الأول: ﴿فَقُلْنَا يٰٓأٰدَمُ إِنَّ هٰذَا عَدُوُّكَ وَلَزَوٰجَكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۚ﴾ (طه)، وهو مسلط على بنى آدم إلى قيام الساعة، ومأذون له في مشاركتهم حتى في الأموال والأولاد: ﴿وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَشْطٰغَتٍ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۚ﴾ (الإسراء). هذه الآية وحدها تذكر أربعة أنواع من كفاءات العمل الفعالة التي يستخدمها الشيطان ضد الإنسان، وهي في إطار النظام الاجتماعي الفطري العام الذي نستعرض ملامحه هنا لا يكاد ينبو من تأثيرها المدمر أحد، وهي: "الاستفزاز بالصوت"، "الجلب بالخيال والرجل"، "المشاركة في الأموال والأولاد"، "الوعد المخوف": ﴿وَقَالَ الشَّيْطٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْوَ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ﴾ (إبراهيم). لذلك هي كفاءات عمل تعمل على دعم الكفاءات الهادمة للمجتمع مما ذكرنا أعلاه، وإن كان لا يمكن رصدها مباشرة من خلال البحث العلمي التجريبي، ولكن مرجعية الوحي تسمح لنا باعتماد هذه الكفاءات علميا، والثقة بتأثيرها على مستوى الفرد والمجتمع أكثر من ثقتنا في تلك الكفاءات المؤسسة على تخميناتنا الظنية وإن كانت علمية. وهذه الكفاءات الشيطانية تعمل من خلال هوى الإنسان وحب

الشهوات حيث يزین الشيطان للناس أعمالهم. وهذه الأعمال المزينة شيطانيا هي أعمال فاسدة يرتد أثرها على نفس الإنسان فتقوى فيها ملهات الفجور، ويقسو القلب، وتضعف الكيفيات الموجبة مما يعزز التفكك الاجتماعي، ويمهد الطريق إلى هدم المجتمع.

كيفيات العمل الجوهرية الفاعلة في العلاقة المباشرة بين الخالق سبحانه وتعالى وبين النظام الاجتماعي الفطري العام من خلال مكوناته ونسيجه وبيئته هي مسارات فعل في اتجاه واحد من الرب إلى العباد، وهي كيفيات "الرحمة" و"الرأفة"، فما كان الله ليعذبهم رغم ضلالهم حتى يبعث رسولا، وقد افترضنا عدم إرسال الرسول في هذا النظام الفطري. وقد قال الله تعالى إنه بالناس رؤوف رحيم، وهي رحمة عامة في هذه الدنيا لكل الناس لا تترتب عليها هداية الطريق. وكيفيات الرحمة الإلهية لا يحصيها إلا الله، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ١٨﴾ (النحل). ومن كيفيات عمل الرحمة كيفية "التسخير"، فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَنُيْهِ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ٤٨ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّةٌ لَمْ يَكُنْ رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ٥١﴾ (الروم)؛ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٣﴾ (الجاثية). هناك أيضا كيفية "التمكين": ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١٠﴾ (الأعراف).

هناك العلاقة غير المباشرة بين الناس وبين ربهم، وكيفيات العمل فيها هي السنن الاجتماعية الحاكمة لجميع النظم الاجتماعية بما فيها النظام الاجتماعي الفطري العام الذي نتعرف عليه الآن، وهي سنن لا تتبدل، ولا تتحول: ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣﴾ (فاطر). وقد قمنا بتعريف سنة الله الاجتماعية في بحوث لنا سابقة كما يلي:

"كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة، فيهيمن عليه ويصدق فعل إلهي مناسب له لينتهي به، بأسباب طبيعية، أو اجتماعية، أو بكليهما، إلى نتائج يقدرها الله تعالى قد تكون مطابقة، أو مخالفة، لما قصده الفرد، أو الجماعة من فعلهم، وقد يخص تأثيرها الفرد الفاعل، أو بعم كل، أو بعض الجماعة، وقد يكون التأثير مباشرا ينحصر في الفاعلين، وقد يكون غير مباشر يتجاوزهم إلى محيطهم الاجتماعي والطبيعي".

ينتهي استعراضنا لأهم سمات النظام الاجتماعي الفطري العام إلى أنه نظام، إذا ترك دون تدخل من خارجه إلا من الشيطان، تنتهي تطبيقاته العملية في الزمان والمكان إلى نظم اجتماعية دنيوية بحكم الفطرة البشرية، وبحكم البنية الاجتماعية للنظام، سواء في علاقاتها الداخلية، أو في علاقة مكونات النظام مع مكونات البيئة الخارجية، وبمقتضى كيفيات العمل التي تتحكم في عمليات التغيير الاجتماعي. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات كثيرة، كما يقف تاريخ الاجتماع الإنساني شاهدا على ذلك. إذن قضاء الله تعالى ألا يعبد الناس إلا إياه يقتضي إنزال الوحي من السماء، وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين.

2.3.4- النظام الاجتماعي الدنيوي

هذا النظام يمثل الشكل رقم (3) في هذا البحث، وهو أحد نهايات النظام الاجتماعي الفطري العام، ويتأسس على فرض نزول الوحي، وإرسال الرسل، واستحباب الناس الذين يكونون هذا النظام الكفر على الإيمان، وإرادتهم الحياة الدنيا وزينتها، وإيثارهم لها على الآخرة، فهو إذن نظام اجتماعي مصنوع، وليس فطري، بل تم تصميمه ليحقق مقاصد حياتية محددة. الأوفق أن نبداً برصد الخواص الوجودية والمعرفية والمنهجية التي أثبتتها القرآن الكريم لهذا النظام، ثم توظيف هذه الخواص في التعرف على سماته النظامية. لقد أثبت القرآن الكريم لهذا النظام الاجتماعي الدنيوي الحقائق الآتية:

1- إيثار الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ١٦ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ١٧﴾ (الأعلى)؛ ﴿فَاعْرَضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٢٩﴾ (النجم)؛ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥﴾ (هود)؛

2- تعظيم متاع الحياة الدنيا كمقصد نهائي للناس الذين يتكون منهم النظام: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُمْصَقًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُورِ ٢٠﴾ (الحديد)؛ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ١٢﴾ (محمد)؛

5- الإفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام هو المحصلة النهائية للنظام: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ﴾ (محمد)؛ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١﴾ (الروم).

يتكون النظام الاجتماعي الديني المثالي (Ideal Type) من ناس تنطبق عليهم الخواص الخمسة أعلاه، فعالم الشهادة هو وحده المحدد لرؤيتهم للعالم، وتعظيم متاع الحياة الدنيا هو وحده مقصدهم، والعلم بظاهر من الحياة الدنيا هو وسيلتهم، وملهمات الفجور في النفس هي هاديهم إلى الفعل والتفاعل الاجتماعي.

تشمل بيئة النظام مكونات عالم الشهادة (الأرض، السماء، الوحي)، ومكونات عالم الغيب (الشياطين، الجن، الملائكة)، ثم الله المتعالي، عالم الغيب والشهادة، القاهر فوق عباده. ينبغي التنبيه إلى أن "المال" و"البنون" يظهران في الشكل رقم (6) كمكونين من مكونات بيئة عالم الشهادة لنظام الإنسان، لكنهما هنا يصيران في صلب تركيبة النظام الاجتماعي، لذلك لا يشكلان مكونين من مكونات بيئته الخارجية، بل يظهران في شكل نظم اجتماعية جزئية بما عملته يد الإنسان فيهما. ونلاحظ هنا دخول الوحي كمكون من مكونات عالم الشهادة، لأن من الافتراضات القبلية لهذا النظام هو نزول الوحي، وإرسال الرسل مما أدى إلى أن يختار الناس الكفر على الإيمان. والوحي بعد نزوله من عالم الغيب عن طريق الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، يصير من مكونات عالم الشهادة، إما من حيث هو علم يحمله بشر، رسلا كانوا، أم علماء ربانيين يخلفونهم في هذا العلم عبر الزمان والمكان، ويبلغونه للناس، أو وحي في كتاب مكنون كالقرآن الكريم، محفوظ من التحريف إلى قيام الساعة بحفظ الله تعالى له، ومتاح الاطلاع عليه من كل الناس.

يتكون نسيج النظام (بنيته) من جملة العلاقات الداخلية التي تربط مكونات النظام مع بعضها، وكذلك جملة الروابط الخارجية التي تربط مكونات النظام مع مكونات بيئته الخارجية، مما يعني أن لدينا نسيج داخلي، وآخر خارجي. البيئة الخارجية للنظام تأتي على ثلاثة مستويات، بيئة عالم الشهادة المكونة من الأرض، السماوات والوحي، وبيئة عالم الغيب المكونة من الشياطين، الجن والملائكة، ثم الروابط التي تربط الناس بخالقهم تبارك وتعالى.

32

النظام الاجتماعي الديني المثل يصبح محكوما بمضامين آيات مثل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ٩٨﴾ (البقرة)؛ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ ٢٢﴾ (محمد)؛ ﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمَوُ لِهْمُ وَلَا أَوْلَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ٥٥﴾ (التوبة)؛ ﴿أَبْحَسُّونَ إِنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٦﴾ (المؤمنون)؛ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ١٢﴾ (محمد)؛ ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ ٢٠﴾ (البقرة)؛ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ١٢٤﴾ (طه)؛ ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ (النحل)؛ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً رَبِّ غَفُورٌ ١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ١٦ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ ١٧ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرَى الَّتِي بَنَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ١٨ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَفَتْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ١٩ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَرِيْبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٠﴾ (سبا)؛ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ (الجاثية)؛ ﴿أَقَمَنَّ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَهْوَاءَهُمْ ١٤﴾ (محمد)؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ١٦٩﴾ (النساء)؛ ﴿اعْلَمُوا إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأُمُومِ وَالْأُولَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ أَغْجَبَ الْكَفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتْعٌ لِّغُورٍ ٢٠﴾ (الحديد).

مضامين الآيات أعلاه تحكم تحليلنا لنسيج النظام الاجتماعي الديني، على مستوى النسيج الداخلي والخارجي. النسيج الداخلي للنظام تحكمه علاقات الناس في محوري (المال) و (البنين)، أي في إطار الفعل والتفاعل الاجتماعي المبني على التنافس على زينة الحياة الدنيا، وتعظيم الحظوظ الفردية والجمعية من متاعها، وما ينشأ من نظم اجتماعية وسيطة ميسرة ومؤكدة لهذا النوع من التفاعل الاجتماعي. السمة الجوهرية الغالبة على هذه العلاقات الاجتماعية هي الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، وقد أكد ذلك الحديث النبوي الذي أورده البخاري في صحيحه: (فَأَبْشُرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ).

العلاقات الرابطة في مجال المال في هذا النظام الاجتماعي الديني جوهرها أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الربا، والكنز، والتلطيف في المكيال والميزان، وكل أنواع الغرر، وعدم الوفاء بالعقود في مجال الإنتاج والتوزيع، والتمتع والأكل كما تأكل الأنعام في مجال الاستهلاك، وتوظيف المال في المسافحة واتخاذ الأخدان، وإكراه النساء على البغاء، وكل أنواع تجارة الجنس الجالبة للمال الحرام، المؤدية إلى الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام مما ذكر القرآن الكريم. هناك أيضا علاقات مالية تقوم على بطش الجبارين وما تؤدي إليه من حروب فيها الغالب والمغلوب، والناهب والمنهوب، والقوي والمستضعف، وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة عديدة لهذا النوع من العلاقات المالية في النظم الاجتماعية التاريخية للبشرية.

العلاقات الجوهرية الرابطة في مجال البنين هي ابتداء علاقات بيولوجية جنسية تربط الرجال بالنساء، وهي في هذا النظام الاجتماعي الديني طابعها الغالب هو الفحشاء والمنكر، سواء كانت علاقات طبيعية بين الرجال والنساء، أم غير طبيعية كالمتولية، وزنا المحارم، وقد صدق تاريخ المجتمعات البشرية، لا سيما ما بين أيدينا منها، كل ذلك؛ ما وثقه القرآن منها، وما دونته الأفلام، حتى إن الله تعالى أنزل قرآنا يحرم زنا المحارم، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾ (النساء). الروابط الرحمية المترتبة على الروابط الجنسية طابعها العصبية الجاهلية، وفي إطارها نجد علاقات الحب، والولاء والبراء، والنصرة، والبغضاء، والبغى، والإثم والعدوان...إلخ. وهناك الروابط العقدية التي تربط بين أصحاب المعتقد الواحد، وهي معتقدات وثنية، كفرية وشركية. وهناك الروابط المعيارية (أخلاقية، قانونية) يضع أسسها الملأ النافذ في المجتمع، تضمن حماية مصالحه، وتحدد العلاقات بين الناس: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقُومُ الْيَسْرَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٥١ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ٥٣ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ٥٤﴾ (الزخرف). وفوق كل ذلك هناك روابط الفعل الاجتماعي في النظم الجزئية (اقتصادية، سياسية، تربوية، معرفية، ثقافية) مثل المشاركة والتعاون والتشاور، التنافس والصراع، التبادل والإعلام، التراضي والإكراه، الخضوع والثورة...إلخ.

الشكل رقم (6) يبين أن النسيج الخارجي للنظام الديني يبنى على علاقات ثلاث، إحداها بين مكونات النظام ومكونات عالم الشهادة، لاسيما الأرض والسموات، لأن مكون الوحي قد تم الإدبار عنه من قبل مكوني النظام، فعلاقتهم به هي علاقة "إدبار"، وعلاقة "إعراض"، وعلاقة "تولي". والثانية مع مكونات عالم الغيب من الجن والشياطين والملائكة، ثم الأخيرة علاقة مع الله تعالى، عالم الغيب والشهادة. روابط الإنسان الديني بالأرض والسموات طبيعتها "الإفساد" فيهما بسبب النظر إليهما فقط كمصدر للموارد المادية التي هي أساس تعظيم المتاع الديني، الذي من أهم كفايات عمله "اتباع الهوى"، و"حب الشهوات": ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ١٢﴾ (محمد)؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ١٢﴾ (البقرة)؛ ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ٧١﴾ (المؤمنون)؛ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١﴾ (الروم)؛ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ٢٢﴾ (محمد).

الروابط مع عالم الغيب أهمها تلك التي تربط مكونات النظام الاجتماعي الديني بالشیطان، عدو الإنسان، وهي علاقات "ولاية" من قبل الإنسان، وعلاقة "استحواذ" من قبل الشيطان، وجميعها علاقة "القرين" بالقرين: ﴿يَتَّبِعْتَنِي أَفَتَتَّبِعُكُمْ أَلَشَّيْطَانُ كَمَا أُخْرِجَ أَبْوَنُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرِنُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧﴾ (الأعراف)؛ ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ١١٨ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَتَّيْتُهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلَئِبَنَّاكَ إِنْ عَادَ الْأَنْعَامُ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ (النساء)؛ ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أَوْلَئِكَ جَزَبَ الشَّيْطَانُ إِلَّا إِنْ جَزَبَ الشَّيْطَانُ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٩﴾ (المجادلة)؛ ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ٣٧﴾ (الزخرف). هناك أيضا روابط مع الجن عموما ذكرها القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ٦٦﴾ (الجن)؛ ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْتَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ٤١﴾ (سبا)؛ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَتَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ خَلِيدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٢٨ وَكَذَلِكَ نَوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٢٩﴾ (الأنعام).

العلاقة بين الله تعالى وبين الناس المكونين للنظام الاجتماعي الديني هي في جوهرها علاقة "عداء": ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ٩٨﴾ (البقرة)؛ وهي علاقة "مكر": ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ٣٠﴾ (الأنفال)؛ ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ٢١﴾ (يونس)؛ ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوْرُ ١٠﴾ (فاطر)؛ ﴿اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣﴾ (فاطر). هناك أيضا علاقة "الكيد" و"الاستدراج": ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦٦﴾ (الطارق)؛ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَتَسِدُّرُجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢ وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ (الأعراف)؛ ﴿أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا قَالَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ ٤٢﴾ (الطور)؛ ثم هناك علاقة "الاستهزاء": ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ١٤﴾ (الله) يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥﴾ (البقرة)، وعلاقة "النسيان": ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بِأَعْيُنِنَا قُلِ اللَّهُ يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنْكَرُ وَتَبْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٦٧﴾ (التوبة)؛ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ١٩﴾ (الحشر).

رغم علاقة العداء بين الله تعالى والكفار لكنهم يدخلون أيضا في علاقة "الرأفة"، و"الرحمة" الإلهية التي تشمل جميع العباد: ﴿قُلْ لَّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْعَلَكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢﴾ (الأنعام)؛ ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ٣٠﴾ (آل عمران)؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٦٥﴾ (الحج)، والله تعالى يقدر متى ينفذ قدره في عباده بإحدى العلاقتين، في الزمان والمكان.

هذه العلاقة بين الله تعالى وبين الناس في هذا النظام تأخذ مستويين كما أسلفنا، مستوى العلاقة المباشرة الفورية بين العبد وخالقه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾ (البقرة)؛ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ (غافر)؛ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ٦٢﴾ (النمل)؛ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعُزُّبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا

فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦١﴾ (يونس)؛ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَبْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ مِنْهُمْ يَبْلَغُهُمْ يَوْمُ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٥﴾ (هود). وهناك مستوى العلاقة السننية المتراخية في إطار الجماعة من الناس، حتى وإن لم يكن العبد ممن ارتكبوا الأفعال التي أدخلتهم في دائرة السنة المعنوية: ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٢٥﴾ (الأنفال)؛ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ١٣٧﴾؛ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٢﴾ (الأحزاب)؛ ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣﴾ (فاطر).

4.2.3.4- كيفية عمل النظام

النتيجة الجوهرية من التحليل السابق هي أن البنية، أو النسيج في النظام الاجتماعي لا يقتصر فقط على النسيج الاجتماعي المبني على روابط الفعل والتفاعل الاجتماعي بين الناس كما تدعي الفلسفة المادية، بل يتمدد هذا النسيج في عالم الغيب فيشمل روابط هي أقوى بكثير من تلك التي تربط بين الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. إذن ليس هناك نظام اجتماعي بشري، في الرؤية القرآنية للعالم، إلا وله مكون وجودي غيبي هو جزء من نسيجه، وجزء من كفاءات عمله، ومن ثم يؤثر سببياً في طريقة عمل النظام، وفي الأحداث التي تكتنفه، والتغيير الذي يجري فيه، وفي نتائجه المقصودة وغير المقصودة. إذن لا تستقيم الدراسة العلمية للنظام الاجتماعي إلا بأخذ هذه الأبعاد الغيبية في الاعتبار، وهو أمر يثير تحديات منهجية حقيقية لا يمكن التعامل معها من خلال المناهج التي تفترض أن النظام الاجتماعي هو نظام مادي بحت، مثله مثل أي نظام طبيعي، كما يؤكد ذلك "ماريو بنج" في منهجه النظمي الذي استعرضناه في بحثنا السابق لهذا البحث. وهذا لا يعني عدم الاستفادة من هذه المناهج بل المطلوب تطويرها في إطار نظريات وجودية ومعرفية ومنهجية تؤسس على رؤية القرآن للعالم التي منها تم استنباط النظم الاجتماعية التي نعكف في هذا البحث على دراستها.

كفاءات العمل في هذا النظام الاجتماعي الديني تأتي على أربعة مستويات، المستوى الأول هو كفاءات العمل الاجتماعية الداخلية الناتجة عن الفعل والتفاعل الاجتماعي بين مكونات النظام، والمستوى الثاني في إطار الروابط مع بيئة عالم الشهادة ممثلة في الأرض والسماء، والمستوى الثالث مع البيئة الغيبية ممثلة في الشياطين، الجن والملائكة، والمستوى الرابع هو مستوى الروابط بين الناس والخالق تبارك وتعالى.

كفاءات العمل التي تنشأ في إطار العلاقات الداخلية للنظام تأتي على ثلاثة مستويات؛ مستوى (جزئي- جزئي) ويتعلق بالكفاءات التي تنتج الفعل الاجتماعي الفردي؛ مستوى (كلي- جزئي) ويتعلق بالكفاءات الاجتماعية التي توظف الفرد وفعله، سواء على المستوى الأخلاقي والقانوني، أو المستوى الثقافي، أو الفرص التي يتيحها الواقع الاجتماعي أمام الفعل المعين في الزمان والمكان؛ مستوى (جزئي- كلي) ويتعلق بكفاءات العمل التي تؤدي بالفعل الاجتماعي إلى إحداث التغيير الاجتماعي في بنية النظام، ومن ثم في النظام الاجتماعي ككل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٣﴾ (الأنفال)؛ ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ١١﴾ (الرعد). كفاءات عمل التغيير الاجتماعي قد تأخذ طابع العشوائية إن جاءت من عوامل استثنائية مثل الكوارث الطبيعية والتغيرات المناخية، أو تكون نتيجة تطور طبيعي مترام في المجتمع فتأخذ طابع "الإصلاح" الاجتماعي، وقد تأخذ طابع "الثورة"، ولكن في كل الأحوال فإن النظام الديني، الذي استحب الناس فيه الكفر على الإيمان، سوف يظل يعيد إنتاج نفسه وإن اختلفت صورته في الزمان والمكان، وربما لهذا السبب كان ذلك الدعاء الخالد من سيدنا نوح، عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظْلُمُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ٢٧﴾ (نوح).

كفاءات العمل التي تنشأ في إطار العلاقات الداخلية للنظام الاجتماعي الديني يمكن أن نجمها تحت مسمى كفاءات "حب الشهوات"، وأي كفاءات عمل أخرى مكملة لها ينشئها المجتمع لتيسير هذا المقصد الديني الجوهري المحدد لهوية النظام، والتمدد في كل النظم الاجتماعية الجزئية (تربية، اقتصاد، سياسة، ثقافة... إلخ). وهي كفاءات تنشأ ابتداء على المستوى النفسي، وقد ذكرنا سابقاً في هذا البحث تلك الكفاءات الفطرية التي تدفع الإنسان إلى ابتداء الفعل الاجتماعي الموصل إلى زينة الحياة الدنيا (المال، البنون) تلبية للحاجات الفطرية للجسم البشري، وأن ذلك يؤدي بالضرورة إلى إقحام الإنسان في ابتلاء حب الشهوات الثاوي في هذه الزينة، لتبدأ من بعد ذلك، من خلال التفاعل الاجتماعي، أولى الخطوات نحو ظهور المجتمعات البشرية بكل تعقيداتها.

المستوى الثاني من كفاءات العمل تعمل على مستوى الروابط بين مكونات النظام وبيئة عالم الشهادة ممثلة في الأرض والسموات، ويمكن إجمالها تحت مسمى كفاءات عمل "الفساد": ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ

لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١﴾ (الروم). هذا الفساد سببه هو أن الفعل والتفاعل الاجتماعي في هذا النظام الدنيوي يتأسس على اتباع الهوى، وإشباع النفس من شهوات المتاع الدنيوي، سواء كان هذا المتاع مصدره موارد الأرض، أو موارد السماء وما عملته يد الإنسان في هذه الموارد من قيمة مضافة. وهذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر يمكن أن يتمدد إلى إفساد السماوات والأرض ومن فيهن لولا أن الحق لا يتبع أهواء الناس: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ٧١﴾ (المؤمنون).

المستوى الثالث من كفايات العمل هو المستوى الذي ينشأ من تفاعل الإنسان الدنيوي مع الشيطان، وهي كفايات تتأتى من الروابط البنيوية بين الشيطان وبين مكونات النظام الدنيوي كما بينها أعلاه، ومن خلال هذه الكفايات يؤثر الشيطان بصورة فعالة في خيارات الفعل الاجتماعي المختلفة التي يقوم بها الناس، ومن ثم في أفعالهم ونتائجها. لقد ذكر القرآن الكريم كفايات العمل التي يوظفها الشيطان للإيقاع بالإنسان؛ منها "الأمر" المباشر، ومنها "التزيين" في الأرض، ومنها "الاستفزاز" بالصوت، ومنها "الجلب" بالخيل والرجل، ومنها "المشاركة" في الأموال والأولاد، ومنها "الوعد"، ومنها "الأثر": ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزُّهُمْ أَزْوَاجًا ٨٣﴾ (مريم)... إلخ. هذه الكفايات الشيطانية الفعالة، التي لا يراها الإنسان، تعمل داعمة لكفايات العمل الاجتماعية المتولدة في النظام الدنيوي التي، بحكم هوية هذا النظام، تعمل على عدم استقراره، وتنتهي بهدمه مثل كفايات "التعاون على الإثم والعدوان"، وكفايات "الفحشاء" و"المنكر" و"البغي". كل كفايات العمل الاجتماعية هذه أثبتتها القرآن الكريم لهذا النظام الاجتماعي الدنيوي، ويمكن تفصيلها إلى كفايات محددة تعمل في مختلف النظم الجزئية (تربوية، اقتصادية، رحمية، سياسية، ثقافية)، وتنتهي بالنظام إلى الإفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام.

المستوى الرابع من كفايات العمل الفاعلة في النظام الاجتماعي الدنيوي هي تلك التي تأتي في إطار الروابط بين الله تعالى وبين مكونات النظام، وهي كفايات يسخرها الله تعالى في إطار علاقة العداء بينه وبين البشر الذين يكونون هذا النظام، والحركة الكونية كلها داخلية في منظومة هذه الكفايات، بما في ذلك الفعل والتفاعل الاجتماعي الصادر عن الفاعلين في النظام الدنيوي ذاته، فلله جنود السموات والأرض، وكلها تعمل لتتأكد النهايات الحتمية لهذا النظام، ولمكوناته من الناس: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٨ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ١٠﴾ (الليل)؛ ﴿ثُمَّ إِنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ فُرُوقًا ٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ ٤٣ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهَا كَذَبُوهُ فَآتَيْنَاهُمْ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَئِيمُونَ ٤٤﴾ (المؤمنون)؛ ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ (النحل)؛ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ غَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا غَارُضٌ مُمَاطِرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ٢٥﴾ (الأحقاف)؛ ﴿وَأَتْلَوْا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ (الأعراف)؛ ﴿طَسَمَ ١ تِلْكَ ءَاتَتْ أَلْكَتَبَ الْمُبِينِ ٢ نَثَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَا مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣ إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شَيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَهُ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥ وَنُمكنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمَّانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٦ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَضَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧ فَالْتَقِظْهُ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ٨ وَقَالَتْ أُمَّرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرَحًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١ وَخَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾ (القصص).

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم بعض كفايات العمل التي هي من صنف كفايات عمل البشر الاجتماعية، ولكنه تعالى يستخدم مثلها ليهيمن بها على ذات نوع الفعل البشري ومآلاته، منها كفايات "المكر": ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ٣٠﴾ (الأنفال)؛ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١﴾ (النمل)؛ ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا فَلِ اللَّهِ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْفُرُونَ ٢١﴾ (يونس). هناك كفايات "الكيد": ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾ (الطارق)؛ ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ٤٥﴾ (القلم)؛ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ٧٦﴾ (يوسف). وهناك كفايات "الاستدراج": ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢﴾ (الأعراف).

3.3.4- النظام الاجتماعي التوحيدي

النظام الاجتماعي التوحيدي المثال يلخصه الرسم البياني رقم (4) في هذا البحث، وهو الحد الآخر المقابل للنظام الاجتماعي الدنيوي المثال الذي ينتهي إليه النظام الاجتماعي الفطري العام، ونفترض فيه نزول الوحي، وإرسال الرسل، وإيمان جميع مكونات هذا النظام من الناس بالله وبما أرسل به رسله.

1.3.3.4- مكونات النظام

المؤمنون الذين يشكلون مكونات هذا النظام نتعرف على صفاتهم من خلال الآيات الآتية:

- * ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩﴾ (المؤمنون)؛
- * ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْعَبِيدُونَ الْأَحْمَدُونَ الْأَسْخَحُونَ الزَّكْعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْزُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّتَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ١١٢﴾ (التوبة)؛
- * ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِيتِينَ وَالْقَنِيتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾ (الأحزاب)؛
- * ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٥٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِبَيِّتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ٦١﴾ (المؤمنون)؛
- * ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ١٦ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ١٧﴾ (آل عمران)؛
- * ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ٧﴾ (الحجرات)؛
- * ﴿أَمَّا الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ٢٨٥﴾ (البقرة)؛
- * ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾ (الأنفال)؛
- * ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠﴾ (الحجرات)؛
- * ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥١﴾ (النور)؛
- * ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧١﴾ (التوبة)؛
- * ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ يُعْجَبُ الزَّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٢٩﴾ (الفتح)؛
- * ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ١٣﴾ (سبا)؛
- * ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ (الحجرات).

الآيات السابقة تبين لنا أن الصفات الإلهية الملهمة للتقوى هي وحدها الحاكم على نفوس المؤمنين الذين يكونون النظام الاجتماعي التوحيدي، وأن جميع أفعالهم وأعمالهم صالحة، وأنهم يسارعون في الخيرات، وأنهم راشدون، وأنهم شاكرون. المقصد من النظام الاجتماعي التوحيدي أن يمكن المؤمنين من تحقيق معنى العبودية لله تعالى، وجوهرها شكره على نعمه، الظاهرة والباطنة، لا سيما فيما على الأرض من زينة، من خلال المسارعة في الأعمال التي تعمر الأرض بالصلاح، فيزدادون إيماناً مع إيمانهم.

2.3.3.4- بيئة النظام

البيئة الخارجية للنظام تتكون من بيئة عالم الشهادة، وبيئة عالم الغيب، ويبين الشكل رقم (6) أن مكونات بيئة عالم الشهادة بالنسبة للنظام هي: الأرض؛ السماوات؛ الوحي، بينما مكوني "المال" و"البنون" يدخلان في تركيبة النظام الاجتماعي موضوع الدراسة من خلال ما عملته يد الإنسان فيهما، ويظهران في شكل نظم اجتماعية جزئية. البيئة الغيبية توجد على مستوى الخلق ويتكون من الشياطين؛ الجن؛ الملائكة، ثم من وراء ذلك الخالق تبارك وتعالى، وهو من وراء خلقه في عالمي الغيب والشهادة محيط. سمة بارزة في عالم الشهادة هي الوحي من الله تعالى إلى الناس في الأرض وقد آمنوا به، ليظل بينهم مُذكراً إلى قيام الساعة، وهو يظل باقياً بين أهل الأرض، إما في شكل كتاب منزل محفوظ بحفظ الله له، وهو القرآن الكريم، وإما في شكل علم يُوحى به إلى الرسل والأنبياء، ويأخذه عنهم العلماء، يتوارثونه، ويبينونه للناس بما است حفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء.

3.3.3.4- بنية النظام

تتكون بنية النظام من مجموع الروابط الداخلية التي تربط بين مكونات النظام، والروابط الخارجية التي تربط بين مكونات النظام من جهة وبين مكونات بيئته الخارجية، في عالم الغيب وعالم الشهادة. إن نزول الوحي بعلم الله تعالى، وإرسال الرسل للبلاغ، وإيمان الناس بكل ذلك يترتب عليه إقامة الدين في الواقع الاجتماعي، وقد افترضناه نظاماً اجتماعياً مثلاً جميع من يكونونه مؤمنون راشدون، ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥١﴾ (النور). علم الوحي يحدد المعايير الأخلاقية والقانونية، وكل القيم التي على أساسها يقام الدين، وبها تنضبط ديناميات التغيير فيه.

هناك روابط داخلية بين المؤمنين ذات طبيعة عامة أثبتتها الآيات التي بدأنا بها هذا النظام تعريفاً بخواص المؤمنين المكونين له، منها: "الولاية"؛ "الأخوة"؛ "التراحم"؛ "الأمر بالمعروف"؛ "النهي عن المنكر"؛ "الشورى". وهناك روابط من جنسها ذكرتها السنة النبوية، منها: "الحب"؛ "النصيحة"؛ "التواد"؛ "شد الأزر"؛ إلخ. وهناك روابط تتأكد أهميتها في إطار نظام اجتماعي جزئي كالنظام المالي مثلاً، منها "إيتاء ذي القربى"، "إقامة الوزن بالقسط"، "النظرة إلى ميسرة"، "التصدق"، "الإحسان"، "الإطعام"؛ إلخ. النظام البيولوجي والرحمي تتحدد فيه العلاقات الرابطة بين الرجال والنساء الأجنيبات من خلال توجيهات الوحي التي جوهرها "أفعل" و "لا تفعل"، مثل "غض البصر"، "حفظ الفرج"، "عدم المواعدة سرا"؛ إلخ، بينما الروابط الرحمية تقوم على "المودة"، "الرحمة"، "الحب"، "البر"، "المعروف"، "الإيثار"، "الخلافة"، "الشفاعة"، "الإخاء"، "الصدقة"؛ إلخ. النظام السياسي نذكر فيه روابط "العدل"، "الشورى"، "النصرة"، "الأمر بالمعروف"، "النهي عن المنكر"، "الطاعة"، "النصيحة"؛ إلخ.

الروابط الخارجية التي تربط مكونات النظام وبيئته الخارجية على ثلاثة أضرب، روابط مع مكونات عالم الشهادة متمثلة في: الوحي؛ الأرض؛ السماء؛ وروابط مع مكونات عالم الغيب متمثلة في الملائكة؛ الشياطين؛ الجن؛ ثم أخيراً ما يربط المؤمنين بالخالق، تبارك وتعالى. إن نزول الوحي من السماء، واستقراره في الأرض كتاباً يقرأه الناس، ويتفاعلون معه، إيجاباً وسلباً، يمثل دينامية تنتهي بالنظام الاجتماعي الفطري إلى واحد من حديه، نظام الاجتماع الدنيوي، أو نظام الاجتماع التوحيدي، أو ينتهي إلى نظام اجتماع حدودي بين الحدين تتداخل فيه سمات النظامين الحدين. يشكل الوحي رؤية المؤمنين للعالم، وحبل الله المتين الذي يحدد روابطهم بالبيئة الخارجية للنظام، فمثلاً، في العلاقة مع مكونات عالم الشهادة يرتبط المؤمنون في النظام الاجتماعي التوحيدي بالوحي بأوثق الروابط منها رابط "الهداية"، رابط "الشفاء"، رابط "التدبير"، رابط "السكينة"، رابط "التعلم"، رابط "التزكية"، رابط "الاعتصام"؛ إلخ.

العلاقة الجوهرية التي تربط المؤمنين بالأرض هي علاقة "الاستخلاف" المقتضية لعلاقة "التسخير"، ثم هناك علاقة "الاعتبار" بما في الأرض من آيات الله الدالة عليه، ثم هناك علاقة "الحياة"، وهناك علاقة "الموت" لقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ٢٦﴾ (المرسلات). المؤمنون علاقتهم الجوهرية بالسماء نوعان؛ علاقة "تسخير"، وعلاقة "اعتبار": ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ (الجناتية)؛ ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغَيِّبُ الْأَبْصَارُ وَاللَّذُرُّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠١﴾ (يونس).

أهم الروابط مع البيئة الغيبية هي تلك التي تربط مكونات النظام التوحيدي من المؤمنين بالشیطان، أحد مكونات هذه البيئة، وهو رباط جوهره "العداء"، فقد أخبر الوحي المؤمنين بأن الشيطان لهم عدو، وأمرهم أن يتخذوه عدواً. وعداوة الشيطان هي لكل الناس، مؤمنهم وكافرهم، ولكن الكافر كفاه بكفره المهمة، وفتح جهده لإضلال المؤمنين. وقد بينا في تحليلنا لهذه العلاقة في إطار نظام الاجتماع الدنيوي كل أنواع الروابط التي تربط الشيطان بمطلق إنسان فنكتفي في هذا بذاك، غير أن الوحي يفيد بأن هناك علاقات للشيطان خاصة بالمؤمنين مثل علاقة "التحزين": ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٠﴾ (المجادلة). كذلك يزود الوحي المؤمنين بكيفيات

عمل لمدافعة الشيطان نذكرها في موقعها أدناه، وهي كفاءات فعالة بدليل أن الشيطان لم يجد له سلطانا على من يكونون هذا النظام التوحيدي: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ (النحل). بالنسبة للجن عموما فقد رأيت أن أتجاهل علاقتهم بالمؤمنين لأنها لا تبدو في رؤية القرآن للعالم جوهري في إطار النظام الاجتماعي التوحيدي.

الرابط الجوهري بين المؤمنين والملائكة، المكون الثاني للبيئة الغيبية، هو رابط "الولاية": ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ٣١﴾ (فصلت)، وهناك رابط "التثبيت": ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢﴾ (الأنفال). وهناك رابطان عامان يربطان كل الناس بالملائكة غير أن المؤمنين على وعي بهما، بينما الكافرون عنهما غافلون، وهما رابط "الكتابة": ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٨٠﴾ (الزخرف)، ورابط "الرقابة": ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾ (ق).

ترتبط المؤمنين بالله تعالى روابط متينة لا حصر لها نذكر أعمها، مثل رابط "الولاية": ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٢٥٧﴾ (البقرة)؛ ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٤﴾ (الأنفال). هناك رابط "الحب": ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾؛ ﴿يَتَابَعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة)، وهناك رابط "الصلة"، ورابط "الرحمة" الخاص بالمؤمنين، من دون الرحمة التي تعم جميع العباد: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾ (الأحزاب). وعلى الجملة فإن جميع الصفات الإلهية التي حملتها الروح إلى الإنسان تمثل روابط تربط المؤمنين بالله تبارك وتعالى.

4.3.3.4- كفاءات عمل النظام الاجتماعي التوحيدي

كفاءات العمل الاجتماعية في إطار فلسفة العلم المادية هي المسارات (Pathways) التي يتخذها الفعل الاجتماعي من خلال النسيج الاجتماعي للربط بين الأسباب ومُسبباتها في إطار النظام الاجتماعي، وهذا هو التفسير الكيفي (المكنزي) لكيف يعمل النظام الاجتماعي المحدد ليوّدي وظائفه، أو للأحداث التي تقع في إطار التغيير الاجتماعي المستمر. ويعتبر التفسير الكيفي أعمق من التفسير السببي المتعارف عليه في العلوم الطبيعية والاجتماعية لأنه يبين كيف يؤدي السبب إلى المسبب. إذن التفسير الكيفي ليس بديلا للتفسير السببي بل تعميقا له، ولكن السببية ذاتها تأخذ أبعادا غيبية في رؤية القرآن للعالم كما تبين من خلال الأبعاد الغيبية للنظم الاجتماعية محل بحثنا هذا، وهذا هو التحدي المعرفي والمنهجي الحقيقي الذي يواجه البحث العلمي الاجتماعي المؤسس على رؤية القرآن للعالم. هنا المسارات السببية لا تقتصر على الفعل الاجتماعي من قبل البشر المكونين للنظام الاجتماعي، بل هناك مسارات موازية، ومعاكسة يتخذها الفعل الشيطاني مثلا، وتؤثر في الفاعل البشري وفعله، ومن ثم نتائجها، بحكم تسليط الشيطان على الإنسان، فكيف يتأتى إدماج ذلك منهجيا في التفسير الكيفي للنظم الاجتماعية؟ كما أسلفنا فإن لله تعالى جنود السماوات والأرض، وأمره بين الكاف والنون، ولذلك فإن تداخل فعله السببي الغيبي مع الفعل الإنساني، والشيطاني في فضاء الاجتماع الإنساني لا يمكن التعويل في دراسته على المنهج الكيفي وحده، فعندما أراد الله تعالى أن يري أحد ابني آدم كيف يوارى سوء أخيه بعث غرابا يبحث في الأرض. هذا تحد منهجي آخر يضاف إلى ما ذكرناه أعلاه، وربما يكون مفيدا النظر في أدبيات التعقيد (complexity theories) وما تطرحه من منهجيات ومناهج بحثية.

كفاءات العمل الداخلية التي تعمل في إطار النسيج الاجتماعي الرابط بين المؤمنين بعضها عام مثل كفاءات (مكّنات) "الإخاء في الله"؛ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"؛ "النصيحة"؛ "الحب"؛ "حسن الظن"؛ "الشورى"؛ "المساواة"؛ "الولاية"؛ "الإصلاح"؛ "تقوى الله".... إلخ. هذه الكفاءات العامة تتولد منها كفاءات عمل متخصصة في كل النظم الاجتماعية المتخصصة في النظام الاجتماعي التوحيدي، كالنظام الحيوي الرحي، النظام المالي، النظام التربوي، النظام الثقافي والنظام السياسي.

كفاءات العمل التي تعمل في إطار علاقة مكونات المجتمع التوحيدي مع الأرض، أحد مكونات بيئة عالم الشهادة، تحددها طبيعة رابط "الاستخلاف" الذي ذكرناه من قبل، وأعمها على الإطلاق كفاءة "الإصلاح"؛ كفاءة "الاستعمار"؛ كفاءة "إقامة الوزن بالقسط"؛ كفاءة "الشكر"؛ كفاءة "التفكر"؛ كفاءة "الاعتبار".... إلخ. معظم كفاءات العمل هذه هي ذاتها التي تعمل في إطار علاقة المؤمنين بالسماوات، المكون الثاني لبيئة عالم الشهادة، فالله تعالى الذي سخر ما في السماوات وما في الأرض جميعا للإنسان، ذكر ما ينبغي أن تتأسس عليه العلاقة بينهما؛ وما يمكن أن تفضي إليه بفعل الإنسان: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا

وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۖ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الزُّنْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۙ (الرحمن)؛ ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ۙ﴾ (المؤمنون).

الوحي الكريم، علّم الله تعالى، هو أحد مكونات البيئة الخارجية في عالم الشهادة للمؤمنين الذين يكونون النظام الاجتماعي التوحيدي، وهو أهم مكونات فضاء الاجتماع التوحيدي لأنه منه نال المؤمنون إيمانهم، ورؤيتهم للعالم. لذلك فإن هناك كفاءات عمل تعمل على الدوام، من خلال النسيج الذي يربط المؤمنين بالكتاب، لحفظ النظام الاجتماعي التوحيدي، وتطويره نحو كماله من خلال تطوير النظام النفسي للمؤمنين فيرتقوا في أسباب صلاح القلوب، وصلاح الأعمال فيزدادوا علما، وإيمانا، وعملا صالحا. أهم كفاءات العمل التي تعمل في هذه العلاقة هي: "التدبر"؛ "القراءة"؛ "الإدراك"؛ "التعلم"؛ "الاستماع"؛ "الإنصات"؛ "حق التلاوة"؛ "القول به"؛ "العمل به"، "الاستشفاء"؛ "الهداية"؛ "الرحمة"؛ "قشعريرة الجلود"؛ "لين الجلود"؛ "لين القلوب"؛ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ آحَدِيثٍ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۙ﴾ (الزمر)؛ "الإخبات"؛ ﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾؛ "الاعتصام"؛ ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران)...إلخ.

هذه المسارات الكيفية (المكنزمية) تعمل في الاتجاهين، فمن المؤمنين تأتي المبادرة بالأفعال نحو الوحي، ويعود الأثر الراجع من الوحي على المؤمن، جسدا ونفسا، فيتحقق الأثر الطيب في تغيير ما بأنفس المؤمنين، فيغير الله النظام الاجتماعي التوحيدي نحو كماله في كل نظمه الجزئية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مَثُومٌ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ۙ﴾ (المائدة).

البيئة الغيبية للنظام الاجتماعي التوحيدي تكون الروابط الفاعلة فيها بين المؤمنين والسياطين، وقد ذكرت، في إطار النظام الاجتماعي الديني، كفاءات العمل التي من خلالها يعمل الشيطان للاستحواذ على الإنسان، وهي كفاءات ناجعة جعلت الناس في ذلك النظام يستحبون الكفر على الإيمان. لذلك كان لابد للمؤمنين في النظام التوحيدي من كفاءات عمل تعمل كالترياق المضاد للشر والاستحواذ الشيطاني، لأن الشيطان لن يألو جهدا في توظيف ذات كفاءات عمله لإضلال المؤمنين. أهم كفاءات العمل الفاعلة ضد الوسواس الشيطاني الخناس هي "الاستعانة" بالله من همزات الشياطين؛ كفاءات "الإيمان والتوكل" لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ (النحل)؛ كفاءات "الذكر" لقوله تعالى: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٩﴾ (المجادلة)، فذكر الله والشيطان لا يجتمعان، وأهم أنواع الذكر الصلاة، وقراءة القرآن الكريم.

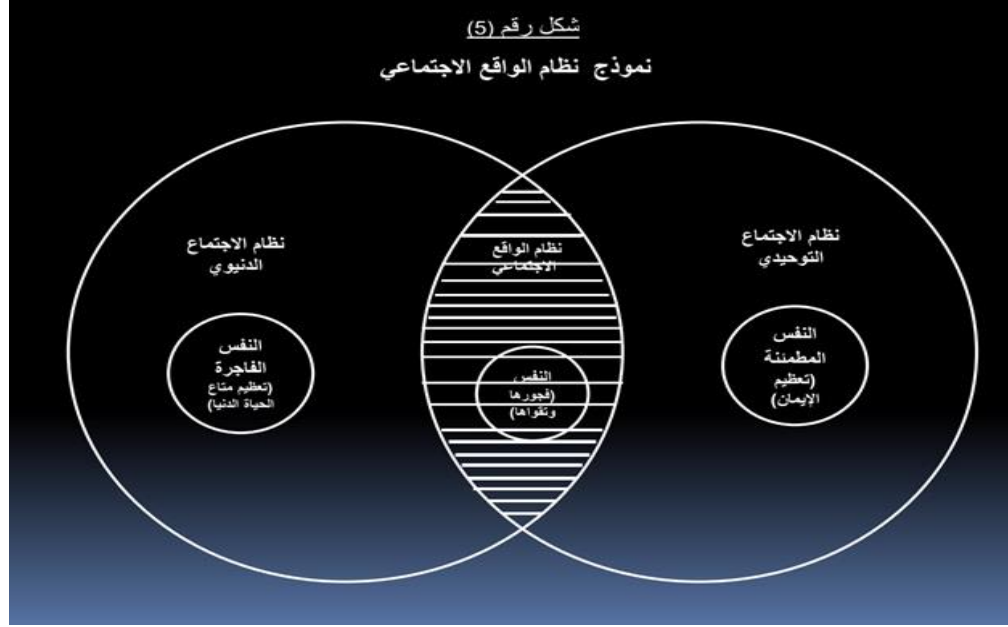
كفاءات العمل التي تعمل في إطار الروابط التي تربط المؤمنين بالملائكة هي كفاءات يغلب عليها الاتجاه الواحد، من الملائكة إلى المؤمنين ممثلة بصورة جوهرية في كفاءات "الولاية": ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ٣١﴾ (فصلت). هنا أيضا تحد منهجي لصعوبة رصد كفاءة عمل هذه المكنزات، وهو من جنس الإشكال المنهجي المتعلق بالتداخل السبي بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ورغم أنه تحدٍ إلا إنه فرصة أيضا لتطوير المنهجية الإسلامية التجريبية في هذا المجال الحيوي من الاجتماع الإنساني.

النسيج الذي يربط المؤمنين بالله تعالى نسيج كثيف، ومتين كما أوضحت أعلاه، ومن ثم فإن كفاءات العمل التي تعمل لحفظ هذا النسيج وتطويره هي بذات الكثافة والفعالية، وهي تعمل في اتجاهين متعاضدين، يقوّي بعضهما بعضا، منه تعالى ابتداء بإرسال الرسل وإنزال الكتاب الذي جعلناه مكونا من مكونات عالم الشهادة بعد تكامل نزوله إلى الأرض، ثم من المؤمنين إلى الله تعالى ومنه إليهم. أهم كفاءات العمل العامة التي يتمدد تأثيرها في كل نسيج النظام الاجتماعي التوحيدي، بشقيه الداخلي والخارجي، هي "الإيمان" من المؤمنين، تقابلها كفاءة "الأمن"، وكفاءة "الهداية" من الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ٨٢﴾ (الأنعام). هناك أيضا كفاءة عمل عامة وجوهرية، هي "التقوى" لله تعالى من المؤمنين تقابلها من الله تعالى كفاءة عمل لا حدود لأثرها الإيجابي، هي "البشرى": ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦٤﴾ (يونس). وهذه الآية تشير أيضا إلى كفاءة عمل "الولاية". هناك أيضا كفاءة "الدعاء" من المؤمنين تقابلها كفاءة "الاستجابة" من الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ (غافر). لعل في هذا ما يكفي للتدليل على هذه الروابط الجليلة بين الله تعالى وبين عباده المؤمنين، وأن المسارات، أو كفاءات العمل (المكنزات) التي تعمل صعودا ونزولا لتمتينها من التعدد والتنوع بما لا يحصىه إلا الله تعالى، ولعل نظرة إلى الآيات التي أوردناها في بداية حديثنا عن هذا النظام للتعريف بمكونات النظام الاجتماعي التوحيدي من المؤمنين تعطينا فكرة عن

طبيعة العلاقات بينهم وبين الله تعالى، وكيفية العمل التي يمكن أن تنشأ بمقتضى هذه العلاقات، والكفاءة التي يمكن أن يعمل بها النظام الاجتماعي التوحيدي لتحقيق وظائفه الاجتماعية.

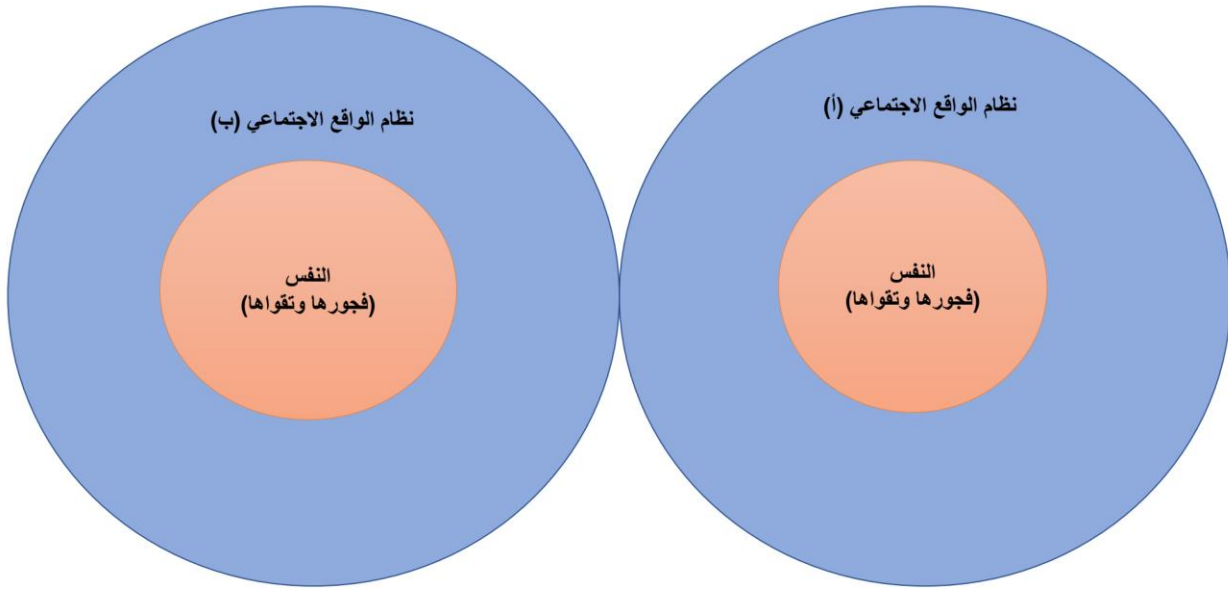
4.3.4- نظام الواقع الاجتماعي

الشكل رقم (5) أدناه يضم نموذج نظام الواقع الاجتماعي، وهو يقع في المنطقة الحدودية بين النظامين الديني والتوحيدي، حيث يتقاطع النظامان، وذلك بسبب أن النظم الاجتماعية هي نظم مفتوحة، بمعنى أن حدودها قابلة للاختراق من قبل النظم المجاورة لها، وتمثل بيئتها التي تتأثر بها وتؤثر فيها. لذلك فإن نظام الواقع الاجتماعي هو دائما محصلة التفاعل الحدودي بين النظامين الديني والتوحيدي، وقد تغلب عليه سمات أحد النظامين بحسب قوة التأثير لعوامل المد والجزر المتبادل بينهما على الدوام. وقد يتمايز النظامان التوحيدي والديني ولا يتقاطعا، بل يتماسا عند الحدود، وذلك عندما تكون الحدود جغرافية، في الزمان والمكان، مما يسمح بدراسة قضايا العلاقات الدولية بحسب السيناريوهات المختارة (أنظر الشكل رقم 7 أدناه).



شكل رقم (7)

نظام الواقع الاجتماعي (2)



1.4.3.4- مكونات النظام

يتكوّن نظام الواقع الاجتماعي من مكونات النظامين الديني والتوحيدي، وما بينهما، فهناك المؤمنون بتصنيفاتهم التي ذكرها القرآن الكريم: الظالم لنفسه؛ المقتصد؛ السابق بالخيرات، وهناك الدنيويون بتصنيفاتهم التي ذكرها القرآن الكريم: المنافق؛ المشرك؛ الكافر. لكل صنف من هذه الأصناف خواصه النفسية، ومقاصده الحياتية، ولكنهم جميعا يتشاركون ذات الفضاء الاجتماعي الإنساني ببيئاته التي ذكرناها أعلاه، وهم يفعلون ويتفاعلون فيؤثر بعضهم على بعض. هذا النظام بهذه الخواص هو التحدي الأكبر للبحث العلمي النظمي في مجال الاجتماع الإنساني المنطلق من رؤية القرآن للعالم بسبب التعقيد البالغ الذي يأتي من تنوع مكونات النظام، ولكنه أيضا منجم لا ينضب للبحث العلمي في مختلف قضايا الاجتماع الإنساني المعاصرة انطلاقا من الوحي الكريم، بما في ذلك ما يسمى بالقضايا الاجتماعية الحدودية (boundary issues) الناجمة عن التعدد، والتنوع بمختلف أشكاله في المجتمع الواحد، أو المجتمعات المجاورة: ديني؛ ثقافي؛ إثني، طبقي، عنصري، جنس... إلخ. والسبب في هذا الثراء المنهجي المفترض هو أن اختراق النظام الاجتماعي التوحيدي، الذي هو أصل الاجتماع الإنساني في رؤية القرآن للعالم، وقد تأسس عليه الاجتماع الإنساني الأول، وكان إبليس أول من اخترقه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَنْدُبْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۝١١٩ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْدُبْ هَلْ أَتَىٰكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ (طه)، يفتح الباب واسعا لتشكّل نظم اجتماعية أخرى تصبح بيئة له، تتفاعل معه على أسس وهويات مجانية للتوحيد، وذلك ما حدّر منه القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ (الأنعام). والاختراق، ومن بعد الاختلاف ثم التفرق قد يأتي من الشيطان كما أخرج أبوي البشرية من الجنة، وقد يأتي من طبيعة النفس البشرية وهي تتقلب في ابتلاء زينة الحياة الدنيا، أو غالبا من الاثنين معا، ولذلك خلقهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ (هود).

إن افتراض نزول الوحي، وإرسال الرسل يحدث فرقا تحليليا كبيرا في هذا النظام مقارنة بالنظامين الديني، والتوحيدي، فبينما تكون النظام الديني افتراضا من كافرين جميع أعمالهم سيئة، وتكون النظام التوحيدي افتراضا من مؤمنين جميع أعمالهم صالحة وراشدة، يتكون نظام الواقع الاجتماعي من بشر منهم مؤمن، ومنهم كافر. فالمؤمنون، على مستوى الفرد، تتراوح أعمالهم بين صالح، وسيئ: ﴿وَأَخْزَوْا أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٠٢﴾ (التوبة)، والعمل الصالح ذاته درجات فمنه ما هو واجب، ومنه ما هو مندوب، ومنه مباح بالجزء واجب، أو مندوب بالكل بمعايير الشاطبي، إلى آخر التصنيفات الشرعية للأعمال. كذلك العمل السيئ أنواع ودرجات بالنسبة للمؤمنين، فمنه، من حيث النوع، ما هو فاحشة، ومنه ما هو فاحشة ومقتا، ومنه ما هو منكرو، ومنه ما هو بغي، ومن حيث الدرجة فمنه ما هو حرام، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح بالجزء حرام، أو مكروه بالكل بمعايير الشاطبي... إلخ. لذلك المؤمنون درجات عند الله في نظام الواقع الاجتماعي هذا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، وجميعهم موعودون بالمغفرة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٣٢ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ٣٣﴾ (فاطر).

الكافرون في هذا النظام أيضا أنواع، وإن كانت جميع أعمالهم سيئة، فمنهم منافقون هم أقرب للكفر منهم للإيمان، ومنهم منافقون مردوا على النفاق، ومنهم مشركون، ومنهم كافرون. ولكل من هذه الأصناف خواص شخصية مختلفة مما ينعكس على نوع الفعل الاجتماعي الذي يصدر عنهم، ومن ثم طبيعة تفاعلهم الاجتماعي مع غيرهم في إطار نظام الواقع الاجتماعي، مما ينعكس على مآلات النظام ككل.

سناريوهات النظم الاجتماعية التي يمكن تصورها ودراستها من خلال نظام الواقع الاجتماعي هذا لا حصر لها، فالتغيير في النسب الديمغرافية، أو في الانتماءات الدينية، أو الإثنية، أو الثقافية... إلخ يؤدي إلى تغيير في جميع معطيات النظام، في مكوناته، في بيئته، في نسيجه، في كفاءات عمله، في دينامية التغيير فيه، وفي مآلات هذا التغيير. القرآن الكريم يعطينا نماذج كثيرة لمتغيرات هذا النظام عبر التاريخ الإنساني ممثلة في الرسل والمؤمنين من أتباعهم من جهة، وباقي التركيبة المجتمعية من جهة أخرى، ولعل العهد النبوي المكي، والعهد النبوي المدني خير شاهد على ذلك، وليس أدل على حقيقة هذا النظام من المجتمعات الإنسانية المعاصرة، وما يمر فيها من أحداث.

2.4.3.4- بيئة النظام

يُظهر الشكل رقم (5) أن البيئة الخارجية لنظام الواقع الاجتماعي ينضاف إلى ما كان فيها من مكونات في النظم السابقة مكوناتان جديدتان هما: النظام الاجتماعي الديني، والنظام الاجتماعي التوحيدي. هذان النظامان يردان هنا كنظامين مفهومين، يشكلان رؤيتين متباينتين للعالم ويجعلان من النفس البشرية مستقرا ومستودعا، فهما جزء من النظام النفسي للإنسان الذي استعرضناه سابقا في هذا البحث، ويشكلان وعيه، ومن خلالهما يفعل ويتفاعل، ويؤثر في الواقع الاجتماعي. والغرض من هذا التجريد النظري منهجي يفيد في دراسة التفاعلات الاجتماعية التي تجري في نظام الواقع الاجتماعي، ومن ثم يعطي مقارنة نظرية لما يجري فعلا في الواقع.

هذان النظامان خرج من تفاعلها الحدودي نظام الواقع الاجتماعي، ويشكلان على الدوام بيئة متفاعلة معه، وقد يكون تأثير أحدهما أكبر من الآخر فينتج التغيير في نظام الواقع الاجتماعي نحو معطيات النظام الغالب. وهذا التغيير الاجتماعي كما أسلفنا قد يكون تطوريا (Evolutionary) غير منظور، وقد يكون إصلاحيا رفيعا، وقد يكون ثوريا عنيفا. هناك بيئة عالم الشهادة المكونة من "الوحي"، "الأرض"، و"السموات"، وبيئة عالم الغيب المكونة من "الشياطين"، "الجن"، و"الملائكة"، وهناك فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، المصدق والمهيمن على هذا التفاعل الكوني ومآلاته، وهو على كل شيء شهيد، وهو على كل شيء قدير.

3.4.3.4- نسيج النظام

العلاقات الرابطة التي تبني نسيج، أو بنية نظام الواقع الاجتماعي تعتمد على السنايوي الذي يعتمده الباحث، لكن إجمالا فإن النسيج الداخلي للنظام يُبنى من روابط فيما بين المؤمنين أنفسهم، باعتبارين، الأول باعتبارهم مؤمنين تربطهم روابط أخوة الإيمان، والثاني باعتبارهم مؤمنين مخالطين لغير المؤمنين، وتؤثر طبيعة المخالطة على هذه الروابط، فمخالطة المنافقين غير مخالطة المشركين، غير مخالطة الكافرين. نذكر من العلاقات العامة الرابطة بين المؤمنين وغيرهم في هذا النظام

الاجتماعي رابط "الر" ورباط "القسط": ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة). هناك أيضا رابط "العدل": ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة). وهناك رابط "الإحسان"، لأن الله تعالى يأمر بالعدل والإحسان مما ينطبق على هذا النظام في الأحوال العادية. ولكن هناك أيضا رابط "العزة" إذا اقتضت العلاقة ذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُجِبُونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة).

كذلك هناك الروابط فيما بين الكافرين أنفسهم، بذات الاعتبارين أعلاه، وباعتبار اختلافهم بين منافق، ومشرک، وكافر. وهناك الروابط التي تربطهم بالمؤمنين وتعبّر عن مكونات أنفسهم. ولا نخوض في تفصيل هذه الروابط الداخلية، فقد ذكرنا بعضها عند حديثنا عن نظام الاجتماع الديني، ونظام الاجتماع التوحيدي، والقصة تطول، وهي تجري على منوال تحليلنا للنظم السابقة، ومكانها بحوث لاحقة، إن شاء الله تعالى، هي من مكونات برنامج البحث العلمي الذي يمثل هذا البحث والذي سبقه إطاره النظري العام.

هناك العلاقات الرابطة بين مكونات نظام الواقع الاجتماعي وبين مكونات البيئة الخارجية في عالم الشهادة (الوحي، الأرض، السماوات)، وتعتمد طبيعة هذه الروابط على نوع مكونات النظام، إن كانت من المؤمنين، أم من الكافرين. سبق أن بينا ما يربط المؤمنين بالوحي في إطار النظام التوحيدي، لكن ههنا جديد في هذه العلاقة يأتي من كون المؤمنين تربطهم روابط معينة مع غير المؤمنين في ذات الفضاء الاجتماعي مما يستدعي علاقة لهم مع الوحي تناسب هذه الروابط، منها مثلا علاقة "الجهاد بالقرآن" دعوةً للآخرين بالدخول في زمرة المؤمنين: ﴿فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان)؛ ومنها "جدلية الأصل والعصر" لجعل رؤية القرآن للعالم تواكب تحديات الفعل والتفاعل الاجتماعي في الزمان والمكان: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَفَرَأَيْنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء)... إلخ. كذلك فإن تفاوت المؤمنين درجات في إيمانهم في هذا النظام بين ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات يؤسس لعلاقات متفاوتة مع الوحي، فالظالم لنفسه قد تكون علاقته "الهجر"، والمقتصد قد تكون علاقته "ما تيسر من القرآن"، والسابقون بالخيرات قد تكون علاقتهم به "حق تلاوته".

العلاقة العامة لغير المؤمنين بالوحي بيّنا حقيقتها في مناقشتنا لنظام الاجتماع الديني، لكن ههنا أيضا جديد بسبب التفاعل بينهم وبين المؤمنين في فضاء اجتماعي واحد مما قد يؤسس لعلاقة "جدلية" بينهم وبين الوحي يقتضيها جدال المؤمنين لهم بالحسن، وبالحكمة والموعظة الحسنة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل)، وقد تكون علاقة "لغو" طلبا للغلبة على المؤمنين اقتضتها علاقات صراعية معهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت).

الروابط التي تربط المؤمنين بالأرض تتفق مع تلك التي أكدناها في إطار النظام الاجتماعي التوحيدي، وأهمها علاقة "الاستخلاف"؛ علاقة "الاستعمار"؛ علاقة "الإصلاح"؛ علاقة "الاعتبار"؛ علاقة "التسخير"، وعلاقة "التمكين". ولكن كون المؤمنين درجات في هذا النظام، بين ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، مضافا إليه علاقتهم بغير المؤمنين في ذات الفضاء الاجتماعي، قد يدخل علاقات جديدة مع الأرض مثل "الإفساد". الروابط التي تربط غير المؤمنين بالأرض هي في جوهرها علاقة "استغلال" وعلاقة "إفساد".

علاقة المؤمنين بالسماوات هي علاقتان إيجابيتان، وأخرى سالبة؛ علاقة "تسخير": ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجمعة)، وعلاقة "اعتبار" بآياتها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة). وأما العلاقة السالبة فهي علاقة "الإعراض": ﴿وَكَايْنِ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف). والعلاقة الأخيرة متأنية من أن المؤمنين في هذا النظام درجات، فمنهم الغافل المعرض عن علاقة "التفكير" التي ينبغي أن تربطه بخلق الله في عالم الشهادة حتى يخرج من حال "الظالم لنفسه"، ومن حال "المقتصد" إلى حال "السابق بالخيرات". أما غير المؤمنين فعلاقتهم الجوهرية التي تربطهم بالسماوات تماثل علاقتهم بالأرض، هي علاقة "استغلال"، تؤدي إلى علاقة

"إفساد"، كما أوضحنا ذلك في إطار النظام الدنيوي، ولكن هناك من تربطهم علاقة "تقديس" ببعض مكونات السماء كعبادة الشمس، وعبادة الكواكب: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت).

العلاقة التي تربط مكونات نظام الواقع الاجتماعي بمكونات عالم الغيب من "الشياطين"، "الجن"، "والملائكة" علاقات بالغة التعقيد والتشابك، إذ لم يعد لدينا في هذا النظام شياطين الجن فقط، بل شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام). ليس هذا فحسب، بل هذا الثنائي الشيطاني تتضافر جهوده ليجعل هذا الزخرف من القول أساسا لعلاقة "الوسوسة" التي تربطه بالناس في هذا النظام، فيؤثر بذلك تأثيرا بالغا في خياراتهم الحياتية، ومن ثم في النتائج المقصودة، وغير المقصودة من الفعل والتفاعل الاجتماعي. لذلك أعرض هنا عن الخوض في تفاصيل هذه الروابط، ونرجئها إلى بحوث لاحقة، ولكن القارئ الحريص يمكنه أن يأخذ فكرة عامة عن طبيعتها مما سبق ذكره في إطار النظامين الدنيوي والتوحيدي أعلاه.

الله تعالى علاقته بالناس في نظام الواقع الاجتماعي هذا أكثر تعقيدا من علاقة مكونات عالم الغيب (الشياطين، الجن، الملائكة) بالناس التي ذكرتها آنفا، وهذا يتناسب مع عظمة الخالق تبارك وتعالى، وعظمة الخلق الكوني، بداية ونهاية وما بينهما، وما يؤول إليه الأمر كله: فريق في الجنة وفريق في السعير. نرجى أيضا الخوض في هذا الأمر العظيم إلى بحوث لاحقة نفصل فيها هذا المجلد من القول إن شاء الله تعالى، لكن الخلاصة المهمة هنا هي أن كل هذه الشبكة الكثيفة من العلاقات والروابط بين الواقع الاجتماعي الإنساني في تفاصيله اليومية، وبين بيئته في عالم الغيب والشهادة، وبين كل ذلك وبين الخالق، تبارك وتعالى، هي ما يصنع هذه النظم الاجتماعية العادية، ومآلاتها من الأحداث الأرضية، الاجتماعية والطبيعية. إن أي محاولة للتفسير العلمي لهذه الأحداث في إطار النظم التي تقع فيها، أو دراسة كيف تعمل النظم الاجتماعية البشرية سوف يكون معيبا في منطلقاته الوجودية، والمعرفية، والمنهجية، ومن ثم في نتائجه العلمية ما لم تتم صياغة هذه النظم في كامل أبعاد نسيجها الوجودي الذي بيّنا ما وسعاه جهدنا منه في هذا البحث. وهذا تحد للفسلفة الإسلامية للعلوم لا تحسد عليه، ولكن لا مهرب من التجرد له، وإنجازه لأن البحث العلمي في مجال الاجتماع الإنساني في حاجة ماسة إليه وهو يتخبط في متاهات الفلسفات العلمية الدنيوية.

4.4.3.4- كفاءات عمل النظام

أسلفنا القول إن كفاءات العمل (المكزمات) في الطريقة النظامية لدراسة النظم الاجتماعية يقصد بها مسارات الفعل الاجتماعي التي تربط بين الأسباب ومسبباتها من خلال النسيج الاجتماعي الذي يربط مكونات النظام المعين، وهي التي تفسر كيف يعمل النظام الاجتماعي المحدد بما يمكنه من تحقيق وظائفه، أو تعطينا تفسيراً لأحداث حدثت في النظام مما أثار فضول الباحثين، ويرغبون في معرفة كيف حدث ما حدث. ذلك في الفلسفة العلمية المادية، ولكن الرؤية الوجودية القرآنية كما رأينا تضيف أبعادا غيبية تتداخل سببيا مع النظام الاجتماعي، مما يؤدي إلى تعقيد بالغ في كل معطيات النظام الاجتماعي. كفاءات العمل بطبيعتها أمر خفي، وليس جلي، تحتاج إلى خيال مبدع من الباحث، وقدرات نظرية تمكّن من تطوير نظرية عن كيفية العمل المقترحة يمكن اختبارها تجريبيا، سواء تم استلهام الكيفية المعنية من الوحي الكريم، أو من النظام الاجتماعي التجريبي موضوع البحث. كفاءات العمل الحقيقية تؤدي عملها، وتحدث أثرها المرتبط بها، سواء في عمل النظام، أو في وقوع الأحداث، ولكن يمكن للأثر ألا يكون ملحوظا إذا طغت عليه آثار كفاءات عمل أخرى أقوى تأثيرا، وتعمل في اتجاه مساق، أو معاكس. كذلك يمكن أن تكون هناك عدة كفاءات عمل تنتج ذات الأثر، وبعضها أفعال من بعض في إنتاجه. هذه الحقائق الوجودية أكثر ما تكون في نظام الواقع الاجتماعي الذي تتجاذبه قوى تأثير متنافرة، سواء في مكوناته، أو في نسيجه، أو مسارات الفعل فيه.

كفاءات العمل التي تعمل في إطار العلاقات الداخلية بين المؤمنين، أحد مكونات نظام الواقع الاجتماعي، تعمل باعتبارين: الأول علاقات المؤمنين في ذات بينهم باعتبار بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ والثاني باعتبار مخالطتهم لغير المؤمنين، وطبيعة كفاءات العمل هذه تعتمد على سناريو الواقع الاجتماعي الذي يختاره الباحث لدراسته. وينطبق ذلك على الروابط الداخلية التي تربط المؤمنين بغيرهم من المنطلقات القيمية للمؤمنين. هذا المنطق التحليلي يسري أيضا على علاقات غير المؤمنين في ذات بينهم، ومن منطلق مخالطتهم للمؤمنين، وفيما بينهم وبين المؤمنين.

إذن، ما دام الأمر كله يعتمد على السيناريوهات التي يبدأ بها الباحث بحثه فلا معنى للخوض في تفاصيل كيفية العمل الفاعلة في علاقات النظام ببيئته الخارجية في عالم الشهادة، وفي عالم الغيب، وكذلك في العلاقة مع الله تعالى، وما مضى من تفصيل للأمر في النظم السابقة أعلاه يعطي صورة واضحة لما ينبغي أن يجري هنا أيضا.

تم بحمد الله تعالى